

أعلام العرب

(٩٨)

إبراهيم بن آدم
شيخ الصوفية

بقلم:
الدكتور عبد الحليم محمود

الهيئة المصرية العامة للكتاب

دار التأليف والنشر

١٩٧٢

مدونة لسان العرب

<http://lisaanularab.blogspot.com>

مقدمة

التصوف والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين . وبعد :

ان من الحقائق التي لا مزية فيها : أن الانسان لا يتأتى له أن يلج باب الله ، أو يسير في الطريق اليه ، الا بالعبودية الخاصة لله وحده لا شريك له . فاذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه ، وأصبح الانسان من عباد الله المخلصين ، وحقق بذلك : « اياك نعبد ، واياك نستعين » . فان الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلًا ^(١) »

ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حق العبودية
الصادقة لله سبحانه فيقول :

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين (١) »
ويقول :

« رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم
أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين (٢) »

وإذا ما حقق الانسان العبودية لله ، فان الله يتولاه بالامداد
بالمعرفة ، انه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا ، وعلمناه
من لدنا علما (٣) »

انه حقق العبودية ، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ،
وأن يفيض عليه العلم ..

وليست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية ، بل ان
للتحقق بالعبودية ثمارا كثيرة سامية ؟

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

(١) من آية : ٨٢ ، ٨٣

(٢) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٣) الكهف آية : ٦٥

« واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه ، أنى مسنى الشيطان
بنصب وعذاب .. اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ..
ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى
الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت انا وجدناه
صابرا ، نعم العبد انه أواب (١) » .

ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية
كاملة تامة ، لقد حققها فى ذروتها ، فكانت صلاته ، وكان نسكه ،
وكانت حياته بأكملها ، وكان موته ، لله رب العالمين ..
لا شريك له :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ،
لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٢) » .

لقد حققها موفورة تامة ، فآتاه الله عز الدنيا والآخرة .
ومتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتداء به ، سار
الصوفية على الدرب ، يقول صاحب « عوارف المعارف » .
الصوفى : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى
الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس ..
ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه .. فبدوام

(١) ص آية : ٤١ - ٤٤

(٢) سورة الانعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

الافتقار ينقى من الكدر .. وكلما تحركت النفس ، وظهرت
بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وفر منها الى ربه ..

فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقته وكدره ،
فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

« كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط (١) » .

وهذه القوامية لله على النفس ، هي التحقق بالتصوف (٢)

ويقول في موضع آخر :

« والصوفي يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات
والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق
مقامه ، ويستتر ما ينبغي أن يستتر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر ،
ويأتى بالأمور فى مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ،
وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص (٣) » .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول صلى الله عليه
وسلم ، فيما دق من الأمور ، وما وضع منها .. وفى اليسير من
أعمالهم ، والعظيم منها .. ومن أمثله ذلك .

(١) سورة المائدة آية : ٨

(٢) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٣) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا .

فى الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخا مفصلا لجهاد الصوفية الحربى ،
ولكننا نكتفى هنا ببعض الأمثلة :

كان شقيق البلخى ، وهو من قمم الصوفية الشامخة ،
يسارع الى خوض المعارك .. لا يبالى على أى جنب كان فى الله
مصرعه .

انظر اليه : خائضا المعارك ، محاربا العدو ، مسلحا
بايمانه ، وثقته فى الله ، وعدته الحرية .. شاهرا سيفه ، فارسا
بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ، هادئا ، مطمئنا ، كامل
الثقة فى الله .

ولقد وصلت ثقته بالله ، الى حد أنه — وهو لا يرى الا
سيوفا مصلته ، ورقابا تقطع ، ورءوسا تسقط ، يقول لمن
بجواره فى هذا الجو :

كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك فى سعادة تشبه سعادتك فى
الليلة التى زفت فيها امرأتك اليك ؟

فأجابه الذى بجواره : لا والله .

فقال شقيق : لكنى والله .. أرى نفسى فى هذا اليوم ، مثلها
فى الليلة التى زفت فيها امرأتى الى .

لقد كان سعيدا بجهاده .. ومات شهيدا في معركة الشرف
والبطولة في ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر — هو من قسم الصوفية أيضا — انه حاتم
الأصم :

كان يدخل المعارك ، ويخوضها في غير خوف ولا فزع ..
وما كانت نفسه تطير اشعاعا من الأبطال .. وما كان يقول لها :
لن تراعى ..

لقد كان كيانه كله في ثقة مطلقة بالله .. وهذه الثقة تتمثل
أجمل ما يكون التمثل ، حينما أخذوه أسيرا ، وطرحوه أرضا ،
وجثم العدو على صدره ليذبحه .

انه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول :

« لم يشتغل به قلبي ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى
في .. فبينما هو يطلب السكين التي يذبح بها ، أصابه سهم
فقتله .. وقمت سليما معافى ، قام سليما معافى ، ليعاود المعركة
من جديد .

واذا قفزنا في ساحة الزمن قفزة واسعة ، فوصلنا الى معركة
المنصورة ، فاتنا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية في قلب
المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرههم ، وهبوا مندفعين الى المنصورة ،

ليساهموا في النصر ، والاستشهاد في سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم .

ولقد كان — وهذا له أهميته الخاصة — أبو الحسن الشاذلي — وهو من صفوة الصفوة الصوفية — قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ، وذهب الى المنصورة ، مساهما في المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل .. لقد كانت تشغله مستيقظا ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيئته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود مشجعا ، حاثا ، مبشرا بالنصر وبالجنة ، فاذا ما جنه الليل ، أخذ يبتهل الى الله سبحانه وتعالى ، متضرعا ، خاشعا ، راجيا التوفيق والنصر للأمة الاسلامية .

وفي ليلة من الليالي ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم — في رؤيا طويلة — وأصبح رضى الله عنه يبشر بالنصر ..

ولم تكن هذه هي الموقعة الأولى التي ساهم فيها أبو الحسن الشاذلي — رضى الله عنه — ولم تكن الأخيرة .

واذا ما قفزنا مرة أخرى — في ساحة الزمن — قفزة واسعة ، فاننا نلتقى بالصوفي الشهير : عبد القادر الجزائري .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة في الحرب ، ولقد

حارب الاستعمار فى الجزائر ، وفعل بايمانه القوى ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، فى الشجاعة والاقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل ، سرى ايمانه واقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم الشجاعة فى أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد شيئاً فشيئاً على مر الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يأخذونه من أسلحة العدو .

ولقد وجه الأمير عبد القادر النداء تلو النداء للأمة الإسلامية ، من أجل العون المالى ، والانسانى ، ومن أجل العون فى العتاد ، فكانت المساعدات التى قدمت اليه مخجلة يندى لها الجبين .

ولم تشعر الأمة الإسلامية ، بأنها أمة واحدة ، وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

« ان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون (١) » .
وقوله تعالى :

« وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون (٢) » .

ان الأمة الإسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الاخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى :

(١) سورة الانبياء آية : ٩٢

(٢) سورة المؤمنون آية : ٥٢

« انما المؤمنون اخوة (١) » .

ولا تحس بالاحساس الاسلامى .

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ولا يخذله (٢) »

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٣) » .

« ترى المؤمنين فى توادهم ، وتراحيمهم ، كالجسد الواحد ،

إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (٤) »

ولم يثن كل ذلك الأمير عبد القادر ، عن متابعة الحرب والكفاح ضد المستعمر .. وحينما أسر — كرمه الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته ومروءته — ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية — وذلك بعد الأسر — مكث فى دمشق يدرس التصوف ، متخذاً — الفتوحات المكية — كتابه المفضل فى الشرح والتفسير .

ولقد طبع هذه الفتوحات ، وفى أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب المواقف ، وهو كتاب فى التصوف عريق ، بين فيه وجهة النظر الصوفية فى مختلف الموضوعات .

(١) سورة الحجرات آيتاً : ١٠

(٢) مسلم

(٣) الامام البخارى

(٤) رواه البخارى

فى التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فأننا نبتدىء بذكر كلمة « للامام الكامل ، الفقيه الأصولى ، المفسر ، الاسفرايينى » صاحب كتاب : « التبصير فى الدين » — وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة . انه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض والقدرية فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

« علم التصوف والاشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر : « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريبا من ألف ، وجمع اشاراتهم وأحاديثهم .. ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب الى شىء من بدع « القدرية ، والروافض ، والخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشیئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشیئة ، والخلق والتقدير،

الى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

بعد هذا نبدأ في النظر الى طريق التصوف ، وصلته بالشرعية :

يقول الامام الغزالي :

« ان الطريق الى ذلك انما هو : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

واذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد الا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، واحضار الهمة ، مع الارادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة » .

وعن هذا الطريق ، يقول ابن خلدون :

« وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ،

وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية .

وفي فضائل أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم كثير منها ، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم .

هذا فيما يتعلق بالطريق :

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال .. فإن الصوفية — على وجه العموم — نبهوا في صور حاسمة الى وجوب التزام الشريعة ، يقول أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه :

« من دعا الى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بدعى » .

ويقول :

« اذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة ، فلا تعباً به » .

ومن أجمل كلماته في هذا ، قوله :

« ما ثم كرامة أعظم من كرامة الايمان ومتابعة السنة .. فمن أعطيها ، وجعل يشتاقي الى غيرها ، فهو عبد مفتر كذاب ،

أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك
على نعت الرضا ، فجعل يشترك الى سياسة الدواب ، وخلع
الرضا » .

وكل الصوفية يتهجون هذا النهج .. ومن هؤلاء مثلاً :
أبو يزيد البسطامي الذي يقول في قوة حاسمة ، وفي منطق
صادق :

« لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى في
الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر
والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

ولقد تحدث الامام الجنيد أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة
بين التصوف والشريعة .. ومما قاله في ذلك :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، الا على من اقتفى أثر
الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وقال أيضاً :

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به
في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

ولقد كان الامام الغزالي ، في سلوكه ، وفي قوله .. في

حياته الخاصة والعامة ، يلتزم الشريعة ، ويقول : ان المحققين قالوا :

« لو رأيت انسانا يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمرا يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، انما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على منواله — فهو امامهم الأسمى في كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » .

وبعد : فقد تبينا مما سبق أن الطريق الى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد سار الصوفية — ومنهم ابن أدهم — في هذا الطريق ، فأثمر لهم ثمارا سامية كثيرة .

منها : الجهاد .

ومنها : التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصوفية والعلم :

فان الصوفية يمثلون العلم الاسلامى فى قمته وفى جميع فروعہ : فى الفقه ، وفى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الأخلاق ..

واذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشامخة التى لا تضارع فيما اجتمع لديها من علوم مدروسة مرواة محكمة فيها الاتقان ، والاستنتاج المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعى ، أعنى شخصية الشيخ الأكبر محيى الدين ، فان الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وان مقارنات مؤرخى الفكر بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين تصعد به الى القمة .

والشيخ الأكبر يذكر دائما بحجة الاسلام الغزالى الذى جمع فى احيائه ، أربعين كتابا كل منها له استقلاله وله ذاتيته ، وألف منها - فى احكام محكم - كتابه احياء علوم الدين .

ولقد انهار تحت قلمه فى سهولة ويسر عباقرة الفكر الفلسفى فتهافتوا وانهاروا ، وأتى عليهم كتابه النفيس : « تهافت الفلاسفة » .

وأخذ حجة الاسلام بدعة الفلسفة وعبث الفلسفة فى الشرق الاسلامى . وللامام الغزالى أكثر من ثمانين كتابا ورسالة فى الأصول والفقه والتوحيد والفلسفة والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ وتتداول وعليها دائماً طابع النضرة :
طابع الخلود .

والصورة الجميلة في الصوفية — في الأغلب الأعم — هي
صورة الجنيد :

لقد كان الكتبة (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسه
لألفاظه والفقهاء لتقريره .

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون لتحقيقه .

والصوفية لارشاداته وحقائقه .

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

وكان فقيهاً على مذهب « أبي ثور » وكان يفتى في حلقاته
بحضرته وهو ابن عشرين سنة .

ويروى صاحب الرسالة القشيرية عن أبي الحسين علي بن
إبراهيم الحداد يقول :

حضرت مجلس القاضي أبي العباس بن شريح ، فتكلم في
الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلما رأى إعجابي
قال :

أتدري من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضى .

فقال : هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد .

واذا ذكر الجنيد ذكر أستاذه : الحارث المحاسبى ، وقد كان الحارث مثقفا فى الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف لقد كان فقيها ، وكان محدثا ، وكان متكلما ، وكان عالما فى الأخلاق ، وكان صوفيا .

ولقد دخل فى قوة فى كل المشاكل التى وجدت فى عصره باحثا مرشدا مجادلا هاديا الى الحق ، والحق فى نظره هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وألّف المحاسبى الكثير من الكتب فى شتى مجالات العلوم .

ولياخذ الانسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم السلمى فى طبقاته ، أو الذين ذكرهم القشيرى فى رسالته ، أو الذين تحدث عنهم صاحب الحلية : فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة ، وعكفوا على دراسته تقربا الى الله سبحانه وتعالى .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وإنما - مع علم الكتب - كان طموحهم الى العلم الوهبى :

العلم الذى يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذى سافر

موسى عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ليلتقى في نهايتها مع
عبد من عباد الله تعالى علمه الله من لدنه علما .

يقول سبحانه عن موسى وفتاه :

« فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه
من لدنا علما »

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم - وهو مطمحهم الأخير - لا يتأتى الا
باخلاص العبودية لله ، ولأن اخلاص العبودية لله لا يتأتى الا بأن
يكون الاستغراق في العمل : صلاة وذكر وصياما .. من
الأسس الجوهرية في حياة الانسان : فانهم اتجهوا في صورة
موفقة الى العمل .

لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء : فأفاض الله عليهم
من الهاماته ، واتسم مادونوه بطابع الروحانية ، واتسم بالنضرة ،
وكان طابعه أنه يزكو على مر الزمن . ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر
فيما ورد من آثار عن ابراهيم بن أدهم . والصورة الحية
المثالية لثمار الهاماتهم هي كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام
وكتاب الحكم لابن عطاء الله .

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح في الهداية على مر
العصور .

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل والضرب في الأرض
واكتساب الرزق ؟

وابتدىء في هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب
الصوفية :

القصار ، الوراق ، الخراز ، الخواص ، البزاز ، الحلاج ،
الزجاجي ، الحصري ، الصيرفي ، المقرئ ، الفراء .

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كغيرهم ، منهم الفقير ومنهم الغني ،
ومنهم العازف عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثروات
الضخمة، التي يؤدون فيها حق الله ، وينفقون منها في سبيله، انهم
يؤتون حق المال يوم حصاده : وفي أموالهم حق معلوم للسائل
والمحروم .

وهذا مثلا أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه ، وهو من
صفوة الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع .

ونقول « مزارع » بالجمع لتتابع في هذا التعبير حديث
المؤرخين عنه وكان له حصاد ، ودراس .. وكانت له ثيران ..
وكان يتاجر ..

ومن دعائه المشهور :

« اللهم وسع على رزقى فى دنياى ، ولا تحجبني بها عن
أخراى » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها فى أيدينا ، ولا تجعلها فى قلوبنا »

والفرق بين الصوفية وغيرهم فى هذا هو أن الدنيا
لا تستعبدهم ، وإنما تستعبد غيرهم ..

انهم لا يلقون بقيادهم الا الله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون
بقيادهم الى مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو رياسة ، أو غير ذلك
مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم ،
وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله .

انهم أغنياء أو فقراء قد تحققوا بقوله تعالى :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »

وابن عطاء الله السكندرى يقص فى كتابه الجميل : «لطائف
المنن» قصة ثرى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة فلم يمنعه
ثراؤه الضخم العريض أن يكون صوفيا .

يقول ابن عطاء الله :

« قال بعض المشايخ كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر الى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

إذا دخلت الى بلد كذا فاذهب الى أخى فلان ، فاقرئه منى السلام ، وتطلب الدعاء منه لى فانه ولى من أولياء الله تعالى .

قال : فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لاتصلح الا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبتة فقبل لى : هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعد ساعة واذا هو آتى فى أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه .

قال : فازداد تعجبى أكثر من الأول .

قال : فهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكننى مخالفة الشيخ .

فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد

والخدم والشارة الحسنة ، فقلت له : أخوك فلان يسلم عليك .

قال : جئت من عنده ؟

قلت : نعم . قال : اذا رجعت اليه قل له :

الى كم اشتغالك بالدنيا ؟ والى كم اقبالك عليها ؟ والى متى لاتنقطع رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت الى الشيخ ، قال :

اجتمعت بأخى فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذى قال لك ؟

قلت : لا شئ .

قال : لابد أن تقول لى ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال : صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدي وعندى اليها بقايا التطلع » . اهـ

وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة

وان كانت مشهورة نوردتها عن الطبقات الكبرى للشعراني
في اختصار .

يقول الامام الشعراني - عن هذه الشخصية الصوفية -
رضى الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا الى الله تعالى : الامام الصالح
الورع الزاهد : شمس الدين الديروطي ، ثم الدمياطي ،
الواعظ ..

كان في الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغوري ، وكان
رضى الله عنه ، مهابا عند الملوك والأمراء ومن دونهم ، زاهدا
ورعا مجاهدا صائما قائما ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ..
وقد حضرت مجلس وعظه في الجامع الأزهر مرات ، فرأيت
مجلسا تفيض فيه العيون ، وكان اذا تكلم أنصتوا بأجمعهم ..
وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف ، فكان كل واحد
يقوم من مجلسه ، متخشعا ، صغيرا ، ذليلا .. رضى الله عنه ..

وكان اذا مر في شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته ،
وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بعيد على ثيابه ، ثم
يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه رضى الله عنه .

خط مرة على السلطان الغوري في ترك الجهاد ، فأرسل
السلطان خلفه ، فلما وصل الى مجلسه ، قال للسلطان : السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته .. فلم يرد عليه .. فقال : ان لم ترد
السلام فسقت وعزلت .. فقال : وعليكم السلام ورحمة الله
وبركاته .. ثم قال :

« علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، وليس لنا
مراكب نجاهد فيها ؟ . فقال : عندك المال الذي تعمّر به .. فطال
بينهما الكلام : فقال الشيخ للسلطان :

« قد نسيت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان .. أما تذكر
حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد الى يد .. ثم من
الله عليك بالحرية والاسلام .. ورقاك الى أن صرت سلطانا
على الخلق .. وعن قريب يأتيك المرض الذي لاينجع فيه طب ،
ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبرا مظلمًا ، ثم يدس أنفك
هذا في التراب ، ثم تبعث عريانا عطشانا جوعانا .. ثم توقف بين
يدى الحكم العدل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة .. ثم ينادى
المنادون : من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر ،
فيحضر خلأق لا يعلم عدتها الا الله تعالى .. فتغير وجه السلطان
من كلامه ، فقال كاتب السر وجماعة السلطان : « الفاتحة :
يا سيدي الشيخ خوفا على السلطان ، أن يختل عقله ، فلما
ولى الشيخ وأفاق السلطان ، قال :

« ائتوني بالشيخ : فعرض عليه عشرة آلاف دينار ، يستعين
بها على بناء البرج الذي في دمياط .. فردّها عليه .. وقال : أنا

رجل ذو مال لا أحتاج الى مساعدة أحد .. ولكن ان كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك .. فما رأى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس ولا أذل من السلطان فيه .. هكذا كان العلماء العاملون ، وقد صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار ، ولم يساعده فيها أحد .. انما كان يعقد الأشربة ، ويتاجر فى الخيار شبر ونحوه — رضى الله عنه — ولم يأخذ قط معلوم وظيفه من وظائف الفقهاء .. وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس وقبول صدقاتهم ، ويخبرهم أنها تسود وجه قلوبهم — رضى الله عنه — ..

وله مصنفات : منها شرح منهاج النووى فى الفقه ، وشرح الستين مسألة ، وكتاب القاموس فى الفقه ، وشرح قطعة من الارشاد لابن المقرئ رضى الله عنه ..

وكان متواضعا مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير ، ولم يصدده ما وصل اليه من العلوم والمعارف والشهرة عن ذلك ..

ولقد رأيته مرة راكبا فنزل وقبل يد أعمى ، تقوده ابنته فقلت له : من هذا ؟ .. فقال :

هذا أقرأنى وأنا صغير جزئين من القرآن — رضى الله عنه — فما أقدر قط أن أمر عليه وأنا راكب ..

توفى رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة احدى وعشرين

وتسعمائة وله من العمر نيف وخمسون سنة رضى الله عنه ودفن
بزاويته بدمياط ، ودفن عنده الأخ العزيز العارف بالله تعالى
سيدي أبو العباس الحريشي رضى الله عنه .

وبعد : فلعلنا قد أزلنا بهذه المقدمة - التي كان من الممكن
أن تستفيض فتصير كتابا - بعض الشبه التي تحوم حول
الصوفية بسبب الجهل بهم ، وجهدنا للتعريف بالامام ابراهيم بن
أدهم رحمه الله ورضى عنه .

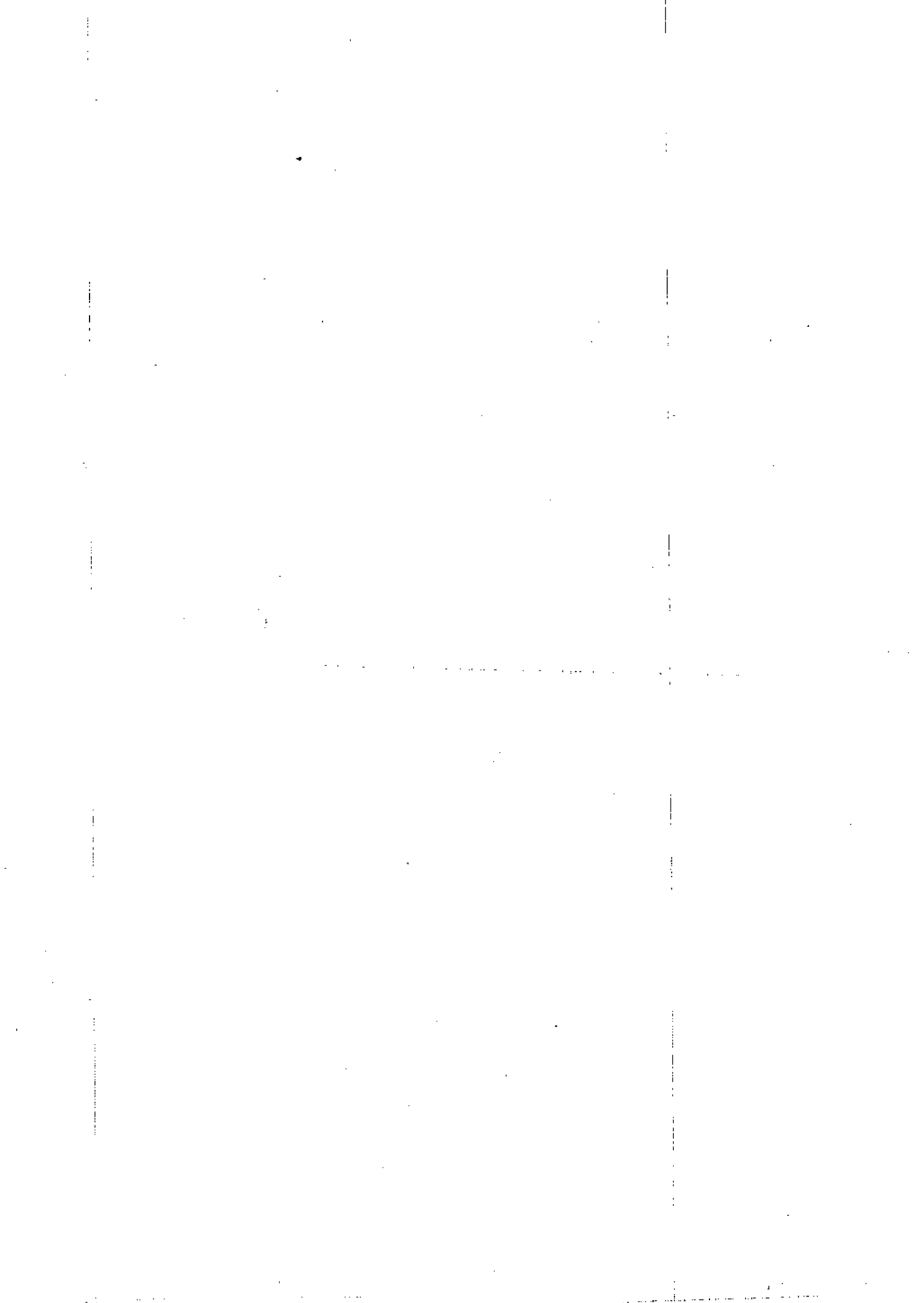
والله الهادي الى الصواب .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »

د . عبد الخليم محمود

الفصل الأول

حياته



حياته

لقد هيا الله سبحانه لابراهيم بن ادهم خادما صوفيا هو ابراهيم بن بشار .. وكان ابراهيم بن بشار هذا نابها ذكيا طلعة ، فكان يحب باستمرار أن يستفيد من ابن ادهم الكثير من الفوائد ، وكان يسأله العديد من الأسئلة .. واننا لندين لابن بشار بالكثير من المعلومات عن ابراهيم بن ادهم ..

وتخير ابراهيم بن بشار لحظة مناسبة ليسأل ابراهيم بن ادهم عن حياته ، وهو يحدث عن ذلك فيقول :

قلت : يا أبا اسحاق ، كيف كان أوائل أمرك حتى صرت الى ما صرت اليه ؟ وما كان ابراهيم بن ادهم يحب أن يتحدث عن نفسه .. انه كان صوفيا أصيلا ، والصوفي الأصل يحب دائما أن يكون بعيدا عن « أنا » .. والصوفي الأصل يتعد بقدر استطاعته عن الحديث الشخصي عن نفسه .. ان ذلك

يجره الى البشرية المادية الحسية ، الى النفس . ، الى الشخصية الفردية .. وذلك خروج من الجو الالهى : جو الاطلاق .. أو بتعبير أدق ، جو الفناء فى الله .. حيث تتمحى ارادته فى ارادة الله ، وحيث يسترسل مع الله على ما يحب ، وحيث العبودية الخالصة التى لا وجود لها — أو ينبغى أن تعتبر أن لا وجود لها — مع الرب جل وعلا .. رأيت محبا مصادقا له شخصية مع محبوبه ؟ ..

أرأيت عابدا مخلصا له ارادة مع ارادة معبوده ؟ ..

أرأيت عبدا صادق العبودية له ظهور بجوار سيده ؟ ..

لقد وصل الأمر بالامام الشبلى — رضوان الله عليه — أنه سئل : لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟ .. فقال : لبقية بقيت فيهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلق بهم الأسماء ..

ان الامام الشبلى حينما سئل هذا السؤال ، لم يأخذ فى مناقشة الاشتقاق ، أو الحديث عن النسبة .. ولم يذهب فى السؤال المذاهب المعتادة من أن أصل الكلمة كذا أو كذا ، أو أنها تنسب الى كذا أو كذا .. وانما تحدث بالصورة العميقة التى تليق بمكانته .. وكأنه يقول للسائل : انها مهازل صيانية ، أن يقف الانسان عند الاسم ، مناقشا فى نسبته أو أصله ، وانما الجدير بالناية هو التوجيه الرشيد .. وأول خطوة فى هذا

التوجيه الرشيد هي تنبيه السالكين الى الله ، أن التخلص من
أهواء النفس وشهواتها ، ونزعاتها ونزاعاتها ، من صميم التصوف
والتخلص من النفس فناء في الله .. والتخلص من النفس التخلص
من التاريخ الشخصي ، أو التخلص من « أنا » ..

ولكل هذه المعاني ، نفر ابراهيم بن أدهم من سؤال ابراهيم
ابن بشار ، وقال له :
غير ذا أولى بك ..

ولكن ابراهيم بن بشار ، وهو لم يكن قد وصل بعد الى
آفاق ابراهيم بن أدهم الصوفية السامية ، عاد فقال له :
يا أبا اسحاق ، ان رأيت ..
فقال له :

ويحك ، اشتغل بالله ..

فقال ابراهيم بن بشار :

كل ما قلته حق ، رحمك الله .. ولكن أخبرني ، لعل الله
ينفعنا به يوما ..

وحينما ذكر ابراهيم بن بشار النفع ، مشيرا الى :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب » ..

تغير الموقف ، وأصبح الأمر ليس أمر حديث شخصي ..
وانما هي قصة للهداية ، وللعبرة ، والعظة ..

وحينما يقصها ابراهيم بن أدهم ، فانه لا يقصها على أنها
تاريخه الشخصي ، وانما على أنها عبرة وعظة ..

وبدأ ابراهيم بن أدهم يقول :

« كان أبى من أهل بلخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان
من المياسير .. وحب الينا الصيد فخرجت راكبا فرسى ،
وكلبى معى .. فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب ، فحركت
فرسى .. فسمعت نداء من ورائى :

ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت أنظر يمئة ويسرة ، فلم أر أحدا .. فقلت : لعن
الله ابليس .. ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك :
يا ابراهيم : ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت أنظر يمئة ويسرة ، فلا أرى أحدا .. فقلت :

لعن الله ابليس ، ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء من قربوس
سرجى : يا ابراهيم ! ما لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت فقلت : أنبهت ، أنبهت .. جاءنى نذير من رب
العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصنى ربى ..

فرجعت الى أهلى ، فخليت عن فرسى ، ثم جئت الى راع لأبى ،
فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى اليه ، ثم أقبلت الى
العراق .. أرض ترفعنى ، وأرض تضعنى ، حتى وصلت الى
العراق ، فعملت بها أياما فلم يصف لى منها شىء من الحلال
فسألت بعض المشايخ عن الحلال ، فقالوا لى :

إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام ..

فصرت الى بلاد الشام، فصرت الى مدينة يقال لها المنصورة
— هى المصيصة — فعملت بها أياما ، فلم يصف لى شىء من
الحلال .. فسألت بعض المشايخ ، فقالوا لى :

ان أردت الحلال الصافى فعليك بطرسوس ، فان فيها
المباحات والعمل الكثير ..

فتوجهت الى طرسوس ، فعملت بها أياما ، أنظر البساتين،
وأحصد الحصاد .. فبينما أنا قاعد على باب البحر .. اذ جاءنى
رجل ، فألح على أن أنظر بستانه ، فكنت فى بساتين كثيرة —
فاذا أنا بصاحب البستان قد أقبل ومعه أصحابه ، فقعده فى
مجلسه ، ثم صاح :

ياناظور ..

فقلت : هو ذا أنا ..

قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيه .. فذهبت

فأتيته بأكبر رمان .. فأخذ رمانة فكسرها ، فوجدتها حامضة..
فقال :

ياناظور : أنت في بستاننا منذ كذا وكذا ، تأكل فاكهتنا ،
وتأكل رماننا ، لاتعرف الحلو من الحامض ؟.. قال ابراهيم :
قلت : والله ، ما أكلت من فاكهتكم شيئا ، وما أعرف الحلو
من الحامض .

فأشار الى أصحابه ، فقال :

أما تسمعون كلام هذا ؟ ثم قال :

أترأى لو أنك ابراهيم بن أدهم ما زاد على هذا ..

فانصرف ، .. فلما كان من الغد ذكر صفتي في المسجد،
فعرفنى بعض الناس ، فجاء ومعه عنق من الناس .. فلما رأيته
قد أقبل مع أصحابه اختفيت خلف الشجر ، والناس داخلون..
فاختلطت معهم وهم داخلون ، وأنا هارب ..

فهذا كان أوائل أمرى ، وخروجى من طرسوس الى بلاد
الرمال ..

وروى يونس بن سليمان البلخى ، عن ابراهيم بن أدهم،
وزاد في هذه القصة :

إذا هو على فرسه يركضه ، اذ سمع صوتا من فوقه :

يا ابراهيم ! ما هذا العبث :

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وأنكم اليينا لا ترجعون »
اتق الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة .. فنزل عن دابته ،
ورفض الدنيا ، وأخذ في عمل الآخرة ..

وبعض هذه القصة يروى بالصورة التالية :

عن داود بن الجراح قال :

« كان ابراهيم بن أدهم ينظر كرما في كورة غزة ، فجاءه
صاحب الكرم ومعه أصحابه ، فقال : ايتنا بعنب نأكله ، فأتاه
بعنب يقال له الخافوني .. فاذا هو حامض .. فقال له صاحب
الكرم :

من هذا تأكل ؟.. قال : ما آكل من هذا ولا من غيره ..

قال : لم ؟ .. قال : لأنك لم تجد لى شيئا من العنب .

قال : فأتنى برمان .. فأتاه برمان ، فاذا هو حامض .. فقال :

من هذا تأكل ؟.. قال : لا آكل من هذا ولا من غيره ،

ولكن رأيته أحمر حسنا فظننت أنه حلو .. فقال :

لو كنت ابراهيم بن أدهم ماعدا ..

قال : فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم ، وترك كراه - أى

أجره ..

وصورة حياة ابراهيم بن أدهم تزداد وضوحاً بالنبأ الذي يرويه عباس بن الفضل المرعشي قال : لقيت عبد العزيز بن أبي رواد .. فتذاكرنا أمر ابراهيم بن أدهم ، فقال عبد العزيز :

« رحم الله ابراهيم بن أدهم .. لقد رأيته بخراسان ، اذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكرين ، ولكنه — رحمه الله — طلب بحبوة الجنة ..

ترك ابراهيم بن أدهم حياة الترف والنعيم والأهواء ، وطلب بحبوة الجنة .. ولكنه لم يستقر في مكان .. وانما كان دائم التنقل ، وربما سافر من بلد الى بلد آخر ، ثم عاد من جديد الى البلد الذي تركه .. وربما دخل بلدا فلم يهنأ بالعيش فيه ، ثم عاد اليه فنعم فيه بالحلال ، كما حصل له بالنسبة الى بلاد الشام ..

ويصور لنا تنقلاته المستمرة ، ما رواه شقيق البلخي قال :

« لقيت ابراهيم بن أدهم في بلاد الشام ، فقلت :

يا ابراهيم : تركت خراسان ؟ ..

فقال :

ما تهنت بالعيش الا في بلاد الشام ، أفر بديني من شاهق الى شاهق ، ومن جبل الى جبل .. فمن يراني يقول : موسوس ، ومن يراني يقول : هو حمال .. ثم قال لي :

يا شقيق ! .. لم ينبل عدنا من نبل الا بتحرى الحلال ، وألا
يدخل جوفه شيء الا من حله ..

ثم قال :

يا شقيق ! .. اذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة
لا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم ..
انما يسأل هؤلاء المساكين — يعنى الأغنياء ..

وتحرى ابراهيم بن أدهم للحلال ، يذكرنا بقصة سعد رضى
الله عنه ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ابن
عباس قال :

« تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم :

(يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا)

فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال :

يا رسول الله ! .. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ،
فقال : يا سعد ! .. أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ..
والذى نفس محمد بيده ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ،
ما يتقبل منه أربعين يوما .. وأيما عبد نبت لحمه من السحت
والربا فالنار أولى به » ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم من أشد الناس تحريا للحلال ..
يقول أحد أصدقائه :

« وكان ابراهيم بن أدهم كبير الشأن في باب الورع ، يحكى عنه أنه قال : « اطب مطعمك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ، ولا تصوم النهار » ..

ومن أجل الحلال ، ومن أجل الورع سيطر ابراهيم بن أدهم على نفسه فأصبحت لا تشتهى الا ما يكون في دائرة الحلال الميسور ، لقد قيل له : ان الرحم قد غلا ، فقال : أرخصوه .. وأئشد في ذلك :

واذا غلا شيء على تركته

فيكون أرخص ما يكون اذا غلا

لقد غالب ابراهيم بن أدهم أهواءه حتى تغلب عليها ، مستعينا بالله ، مستكفيا اياه .. يقول ابراهيم بن بشار : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« وأما أهوائي فقد — والله — استعنت بالله عليها فأعانني ، واستكفيتها سوء مغالبتها فكفاني ، فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها » ..

ولكن سيطرته على نفسه لم تكن من السهولة بمكان ، وهذا طبيعي .. فانه لا يتغلب على نفسه فيسلس له قيادها ، الا من هدى الله وعصم ..

وابراهيم بن بشار يقول :

« سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« أشد الجهاد جهاد الهوى ، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظا ومعافى من أذاها ..
أخذ ابراهيم بن أدهم يضرب فى الأرض ، حارسا للبساتين ،
أو حاصدا للزروع .. وهو فى كل ذلك لا يغتر عن ذكر الله ..
يقول على بن بكار :

كان الحصاد أحب الى ابراهيم من اللقاط ، وكان سليمان
الخواص لا يرى باللقاط بأسا ويلقط ، وكانت أسنانهما قريبة ،
وكان ابراهيم أفقه ، وكان من العرب ، من بنى عجل ، كريم
الحسب ، وكان اذا عمل ارتجز ، وقال :

اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا

وكان يلبس فى الشتاء فروا ليس تحته قميص ، ولم يكن
يلبس خفين ولا عمامة .. وفى الصيف شقتين بأربعة دراهم ،
يتزر بواحدة ويرتدى بأخرى ، يصوم فى السفر والحضر ،
ولا ينام الليل .. وكان يتفكر ، فاذا فرغ من الحصاد أرسل
بعض أصحابه ، فحاسب صاحب الزرع ، ويجىء بالدراهم
لا يمسه بيده ، فيقول لأصحابه : اذهبوا كلوا بها شهواتكم ،
فان لم يكن حصاد أجر نفسه فى حفظ البساتين والمزارع ، وكان
يجلس فيطحن بيد واحدة مدى قمح .. قال ابراهيم :

يعنى قفيزين ..

ولابد لنا من وقفة مع تجربة ابراهيم بن أدهم النفسية :

لقد بدأ ابراهيم بن أدهم حياته فى ترف من العيش ، وفى
نعيم من الدنيا : فقد كان والده من المياسير ، بل كان من بيت
الملك ..

ونشأ ابراهيم لذلك محاطا بكل أنواع الرعاية ، وانغمس
ابراهيم فى كل ما تتيحه بيئته المترفة من ملاذ .. لقد عب منها
ونهل ..

وفى لحظات ، لا تعد بالشهور ولا بالأيام بل ولا بالساعات
فى لحظات — تعد بالدقائق — انقلب ابراهيم — فجأة — من
شاب مفتون بالدنيا ، قد تهيأ له الشباب والفراغ والثراء ، فركض
فى ميادين المتعة ، الى شاب يتجه بكل كيانه الى الله سبحانه ،
و يصبح ما بين طرفة عين وانتباهتها من أولياء الله .. يقول صاحب
« طبقات الصوفية » عن ذلك :

« كان من أبناء الملوك والمياسير ، خرج متصيда ، فهتف به
هاتف أيقظه من غفلته ، فترك طريقته فى التزين بالدنيا ، ورجع
الى طريقة أهل الزهد والورع .. كيف حدث هذا الانقلاب ؟ ..
لقد حدث عنه ابراهيم بن بشار خادمه كما سبق أن ذكرنا ..

ومسألة تحول ابراهيم بن أدهم من حال الى حال مسألة لها نظائرهما في التاريخ ..

فها هو ذا — مثلا — سيدنا عمر — رضى الله عنه — ذاهب لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى على الاسلام ويزيله من الوجود — فيما توهم — فاذا بهداية الله تغمره في لحظات ، فيتحول من جاهلية الى اسلام ..

وقد يظن بعض الناس أنه تحول مفاجيء في الظاهر والباطن ، ولكن اذا تأملنا الظروف والملابسات ، رأينا أنه تحول مفاجيء واقعي ، ولكنه تحول سبقته عوامل لا شعورية ، وبواعث عدة ، تتفق كلها في توجيه الانسان وجهة الخير التي أحبها الله له ..

ان المادة والملاذ والشهوات لا تنتهى بالانسان الى الرضا والطمأنينة والهدوء النفسى والسكينة .. كلا...

وكثير من هؤلاء الذين ينغمسون فيها : كثيرا ما يكونون من أتعس خلق الله ، أرأيت الى هاتيك المثلات الجميلات الثريات ، اللواتى ينغمسن فى الشهوات والملاذ من مفرق رءوسهن الى أخمص أقدامهن ؟ ..

ألم تسمع أن هذه أو تلك قد انتحرت يائسة من أن تجد سكينة النفس ؟ انهن الشقيات ، انهن اللواتى لم يرد الله لهن حسن الخاتمة ..

ولكن من بين المنعمسات فى الملاذ ، من أراذ الله بهن حسن
الخاتمة ، فانتفضن انتفاضة وضعتن فى لحظات فى مرتبة
القديسات ..

ولعل القارئ قد سمع عن : « مريم المجدلية » التى
انتفضت هذه الانتفاضة ، وذهبت الى المسيح عليه السلام ،
فغسلت رجله بالدموع ، ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تكف
عن تقبيلهما ودهنهما بالطيب .. وغفر الله خطاياها على لسان السيد
المسيح عليه السلام ، الذى وازن بينها وبين « سمعان » فرجحت
كفتها ..

وهل قرأت قصة « تاييس » التى كتبها « أناتول فرانس »
فى أسلوب ساحر ، وفى تعبير عن الجوانب النفسية أدق ما يكون
التعبير ..

انها اتجهت الى الله بكل كيائها ، فتقبلها فى رحابه ، وغفر
لها ماضيها الآثم ، وماتت قديسة ..

ان الانتفاضات الدينية الروحية التى تنتشل الانسان فجأة
من حياة اللهو والآثم كثيرة فى مجرى التاريخ ..

وما انتفاضة ابراهيم بن أدهم الا واحدة من عشرات أو
مئات .. ان الرضا الحقيقى لا يكون ثمرة الملاذ .. والسعادة
ليست نتيجة اللهو والعبث .. وان كل من منحه الله عنصر الخيرىة

فى طبيعته لا بد له من انتفاضة تنتشله من جو البعد عن الله الى جو القرب منه ..

هذه الانتفاضة لها مقدماتها وبواعثها ، وأسبابها وعواملها الكثيرة التى تكون انتباهة عابرة ، أو عدم ارتياح الى ما هو فيه ، أو عدم اقتناع بأن حياته تمثل الحياة المثلى ، أو عدم رضا عن آلية حياته ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم — قبل توبته — يتجه الى الله من حين الى حين .. يتجه اليه وهو فى غمرة من ملذاته .. يتجه اليه فى رجاء ويقول :

« اللهم انقلنى من ذل معصيتك الى عز طاعتك » ..

هذه هى انتفاضة ابراهيم بن أدهم ، وهى انتفاضة كل من أحب الله لهم الخير والهداية .. أما الذين نضب معين النور من قلوبهم ، بسبب آثامهم ومعاصيهم .. وأما الذين أطاحت بهم الخطيئة لكثرة ما اجترحوا من السيئات ، فانهم ينتحرون فى غمرة من مقت الله ، أو يستمرون فى شرهم الى أن تنتهى بهم الحياة ..

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » ..

سياحاته :

لقد كان شيخنا — رضوان الله عليه — كثير السياحة ..
لقد كان ينتقل من مكان الى مكان .. كان ينتقل من أجل طلب
الرزق الحلال ، وكان ينتقل من أجل طلب العلم ، وكان ينتقل
متعبدا ، وكان ينتقل ابتعادا عن الشهرة — أى ينتقل من مكان
اشتهر فيه الى مكان آخر لا يعرف فيه ..

والسياحة كانت دائما من منهج الصوفية لكل هذه الأغراض
التي ذكرناها .. وكلمة السياحة اذا كانت قد مسخت الآن ،
وأصبحت لا تكاد تدل الا على العبث والاستهتار ، فانها في
الجو الاسلامي لها معناها الشريف الصادق ..

ان الله سبحانه وتعالى يصف بها المؤمنين الصادقين فيما
وصفهم به من كريم الصفات ، فيقول :

« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون
الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون
لحدود الله ، وبشر المؤمنين » ..

ويصف بها المؤمنات الصادقات اللائي يمثلن المثل الأعلى
لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عسى ربه ان يبدله أزواجا خيرا منكن ،

مسلمات مؤمنات قاتلات تائبات عابدات سائحات ثيبات
وأبكارا) ..

وكانت كلمة السياحة تعنى أحد أمرين :

كانت تعنى السياحة فى طلب العلم : وذلك أن الأمة
الاسلامية — وهى أمة واحدة — قد توزعت الاختصاصات
فى فنون العلم المختلفة بين أرجائها .. فأكبر عالم متخصص فى
الحديث مثلا كان بالمدينة ، وأكبر عالم فى الفقه كان فى مكة ،
وأكبر عالم فى التوحيد كان فى مصر أو فى بغداد .. وهكذا ..

فكان الصوفية يسبحون طلبا للعلم فى مختلف الأقطار ..
ومن الروايات المشهورة ، أن يسافر عالم من دمشق الى القاهرة
فى طلب حديث واحد .. وهذه الأسفار فى طلب العلم يطلقون
عليها هجرة فى سبيل الله ..

والمهاجرون طلبا للعلم ، من الصوفية ومن غيرهم لا يكاد
يحصيهم العد .. وكم ألف هؤلاء المهاجرون من الكتب بجوار
الكعبة ، فكانت مؤلفاتهم فتحا ، وكانت فتوحات ..

وكم ألفوا من الكتب بالمدينة المنورة ، فكانت مؤلفاتهم
نورا ، وكانت أنوارا ..

وكانت كلمة السياحة — أيضا — تعنى السفر تعبدا ، وان
السفر لمن أهم الوسائل التى تدعو الى التأمل والعظة والتفكر ،

والى الخلوة مع الله فى بيئة لا تعرف الانسيان فلا تشغله عن عبادته ..

وكان الصوفية يكثر من هذا النوع من السياحة ، وكانوا يقومون بها على شواطىء الأنهار ، أو فى الصحراء على مشارف العمران ، وكانوا يقصون الأقايص المختلفة التى رأوها أو حدثت لهم أثناء أسفارهم ، والتى يكون فيها العظة والعبرة للآخرين ..

يبد أن أسفار ابراهيم بن أدهم لم تكن من أجل هذه الأهداف التى ذكرناها فحسب ، وإنما كانت أيضا من أجل الجهاد فى سبيل الله .. وسنتحدث عن هذا فيما بعد ان شاء الله .



لقد ترك ابراهيم بن أدهم حياة النعيم وحياة الترف من أجل العبادة ، ولم تشغله حراسة البساتين أو حصاد الزرع عن الاستغراق فى العبادة .. يقول مخلص بن الحسين :

« ما انتبهت من الليل الا أصبت ابراهيم بن أدهم يذكر الله ، فأغتم ، ثم أتعزى بهذه الآية : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .. »

يبد أن الطابع الذى كان يسود عبادته إنما هو التفكير ..

يقول يوسف بن سعيد بن مسلم : قلت لعلى بن بكار : « كان
ابراهيم بن أدهم كثير الصلاة ؟

قال : لا ، ولكنه صاحب تفكر يجلس ليلة يتفكر » .

وابراهيم في هذا يسائر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية
قال تعالى :

« ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار
لآيات لأولى الألباب .. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى
جنبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت
هذا باطلا سبحانه » (١) ..

ويقول :

« قل انظروا ماذا في السماوات والأرض » (٢) .

ويقول :

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها
وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا
فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .. ونزلنا
من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .. والنخل

(١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

(٢) يونس : ١٠١

باسقات لها طلع نضيد .. رزقا للعباد وأحييناه بلدة ميتا كذلك
الخروج » (١) .

ويقول تعالى :

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف
رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف
سطحت » (٢) ؟ ..

ولما نزل قوله تعالى : « ان فى خلق السماوات والأرض
واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » الآيات .. ، بكى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآه بلال فقال : يا رسول الله
تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ..

فقال :

يا بلال ، أفلا أكون عبدا شكورا .. ؟ .. وما لى لا أبكى
وقد نزل على الليلة : « ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف
الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — الى قوله — سبحانه
فقنا عذاب النار » .. ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم
يتفكر فيها ..

(١) ق : ٦ - ١١

(٢) الفاشية : ١٧ - ٢٠

ومن الآثار في ذلك ما روى عن الحسن البصري قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وعن أبي سليمان الداراني قال : « اني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء الا رأيت لله على فيه نعمة ، ولي فيه عبرة » ..

وقال سفيان بن عيينة :

« الفكرة نور يدخل قلبك » .

وقال بشر بن الحارث :

« لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه » ..

واذا تحدث الكاتبون عن عبادة ابراهيم بن أدهم ، فانه من الأهمية بمكان أن يتحدث الانسان عن نوع من العبادة عنده ، هو من أنفس أنواع العبادات ، وذلك هو السخاء ، أو اذا شئت : الصدقة .. يقول مضاء بن عيسى :

« ما فاق ابراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة ، ولكن بالصدق والسخاء » ..

ويحدث أحمد بن أبي الحواري فيقول : قلت لمروان — وكان مضاء حدثني قال : « ما فاق ابراهيم بن أدهم الا بالصدق والسخاء .. قال مروان : كان ابراهيم سخيا جدا » ..

ويقول الأوزاعي :

« ليس في هؤلاء الفقراء أفضل من ابراهيم بن أدهم فإنه أسخى القوم » ..

ورغم أن ابراهيم بن أدهم كان يأكل من عمل يده ، فإن أجره كان فيه البركة ، وكان العسل والسمن دائما على مائدته ، وكانت مائدته مبدولة لكل وارد من أصحابه . يقول بشر بن المنذر — قاضى المصيصة :

« كنت أرى ابراهيم بن أدهم كأنه أعرابى ، لا يشبع من الخبز والماء ، يابس ، إنما هو جلد على عظم ، لا تراه مجالسا أحدا ، ولا تحدثه حتى يأتى منزله ، فإذا أتى منزله وجلس إليه اخوانه ضاحكهم وباسطهم .. وقال لى بعض أصحابه : ما كان العسل والسمن على مائدته الا شبيها بالحمص المطحون — يعنى الباqlا — يريد أنه كان كثيرا مبدولا كأنه الحمص .

ولم يكن كرمه مبدولا فى بيته فحسب ، وإنما كان مبدولا بحسب الظروف .. يروى أحمد بن الفضل العكى قال : سمعت أبى يقول :

« مر ابراهيم بن أدهم بقيسارية وقد تعجل ديناراً من الكرم ، فسمع صوت امرأة تصيح فقال : ما لهذه ؟ .. قالوا تلد .. قال : وأى شىء يعمل بالمرأة .. قالوا : يشتري لها طحين

وزيت ولحم وعسل ، فصرف ديناره ، واشترى زنبیلا ، وملاه
طحینا ، واشترى زيتا وسمنا وعسلا ولحما ، وحمله على رقبتة
الى الباب ، وقال : خذوا .. قال : فنظر فاذا هم أفقر بيت فى
أهل قيسارية وأعبدهم ..

ومرة أخرى ، كمثل لما كان عليه من الاتفاق ، يتحدث عنها
شقيق بن ابراهيم ، ويذكرها كتاب الحلیة .. يقول شقيق :
« بينما نحن ذات يوم عند ابراهيم ، اذ مر به رجل من
الصناع ، فقال ابراهيم : أليس هذا فلانا ؟ .

قیل : نعم .

فقال لرجل : أدركه فقل له ، قال لك ابراهيم : مالك لم
تسلم ؟ ...

قال : لا ، والله .. ان امرأتى وضعت ، وليس عندى شىء ،
فخرجت شبه المجنون .. فرجعت الى ابراهيم وقلت له ، فقال :
انا لله .. كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به الأمر ؟ ..

قال :

يا فلان ، ائت صاحب البستان فاستسلف منه دينارين ،
وادخل السوق فاشتر له ما يصلحه بدينار ، وادفع الدينار الآخر
اليه .. فدخلت السوق وأوقرت بدينار من كل شىء ، وتوجهت
اليه فدققت الباب .: فقالت امرأته :

من هذا ؟ .. قلت : أنا ، أردت فلانا .. قالت ليس هو هنا .

قلت : فمرى بفتح الباب وتنحى ، قال :

ففتحت الباب ، فأدخلت ما على البعير ، وألقيته في صحن
الدار ، وتناولتها الدينار ..

فقلت : على يدى من هذا ؟ ..

قلت : قولى : على يد أخيك ابراهيم بن أدهم .. فقلت :

اللهم لا تنس هذا اليوم لابراهيم ..

ويأسف ابراهيم بن أدهم على ذهاب السخاء من الأنفس ،
يقول ابراهيم بن بشار :

« سمعت ابراهيم بن أدهم يقول : ذهب السخاء والكرم
والجود والمواساة من لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه ،
فليواسهم ببسط الوجه والخلق الحسن .. اياكم أن تكون
أموالكم سببا في أن تتكبروا على فقرائكم ، أو سببا في أن
لا تميلوا الى ضعفائكم ، وألا تنبسطوا الى مساكينكم » قال :

وسمعت ابراهيم يقول : قال لقمان لابنه :

« ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن : لا يعرف الحليم الا
عند الغضب ، ولا الشجاع الا في الحرب اذا لقي الأقران ،
ولا أخاك الا عند حاجتك اليه » ..

وإذا سألت الآن عن الطعام الذي كان يتناوله هذا الذي كان السمن والعسل على مائدته كالحمص ، فهاك ما يقوله أحمد ابن أبي الحواري في ذلك :

« قلت لسليمان بن أبي سليمان : بلغني أنهم تذاكروا طيب الطعام عند إبراهيم بن أدهم ، فقال إبراهيم : ما أحسب أن يكون شيء أطيب من خبز سحق بزيت ، فقال سليمان : كان معه أداته — يعني الجوع — .. ومعنى قول سليمان : هو أن إبراهيم بن أدهم كان يستمرىء كل طعام ، لأنه ما كان يأكل إلا جائعا ، وما دام جائعا فكل طعام في فمه لذيد ..

عبادته عن طريق الدعاء

والدعاء مخ العبادة وذلك لأنه مظهر الافتقار والعبودية الى الله سبحانه وتعالى .

يقول الله تعالى :

« يا أيها الناس أتمم الفقراء الى الله ، والله هو الغني الحميد » .

وفقرنا الى الله سبحانه ومعرفتنا أنه رحيم رءوف ودود ، من فوائده أن يوجهنا اليه سبحانه بالدعاء ليصرف الأذى ، ويرفع المقت ، ويشفي من المرض ، وليكشف العذاب ..

ولقد وجهنا الله صراحة وفي غير موطن من القرآن الكريم

الى أن نلجأ اليه بالدعاء ، انه تعالى يأمرنا بذلك أمرا .. يقول
تعالى :

« وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون
عن عبادتي ، سيدخلون جهنم داخرين » .

ويبين الله سبحانه في صورة من الرحمة الكريمة أنه قريب
من الداعي ، ومن كل عبد له :

« واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا
دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » ..

ويبين سبحانه أنه يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء :

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم
خلفاء الأرض .. ؟ .. أأله مع الله .. ؟ .. قليلا ما تذكرون » ..

والأحاديث القدسية فيما يتعلق بتوجيه الله الى الدعاء ، منها
هذا الحديث الشريف الجميل البالغ الجمال لفظا ومعنى ..
والذى رواه أبو ذر جندب بن جنادة رضى الله عنه ، عن النبى
صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى : انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم
محرمًا فلا تظالموا .. يا عبادى كلکم ضال الا من هديته
فاستهدونى أهدکم .. يا عبادى : کلکم جائع الا من أطعمته
فاستطعمونى أطعمکم .. يا عبادى : کلکم عار الا من كسوته

فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى : انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم .. يا عبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ..

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ..

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص الخيط اذا أدخل البحر ..

يا عبادى : انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ..

وحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدعاء كثيرا فقال :

« ان الله عز وجل يقول :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه اذا دعاني (١) » .

(١) البخارى ومسلم واللفظ له والترمذى والنسائى وابن ماجه

وقال :

« الدعاء هو العبادة : ثم قرأ :

« وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (١) » .

وقال :

« الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض (٢) » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ الى الله في كل آونة بالدعاء .. ومجموعة أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل الأسلوب الجميل والعبودية السامية ، والتوحيد الخالص . ولقد أبان صلى الله عليه وسلم أن قضاء الله الماضي يلفقه الدعاء ، ويرده الدعاء ، وان الدعاء والقضاء يلتقيان فيتصارعان ويتدافعان الى يوم القيامة .. يقول صلى الله عليه وسلم :

« لا يغني حذر من قدر .. والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل .. وان البلاء لينزل فيلقاه الدعاء ، فيعتلجان الى يوم القيامة (٣) » .

(١) أبو داود والترمذي واللفظ له وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٢) الحاكم وأبو يعلى .

(٣) رواه البزار والطبراني والحاكم وقال : صحيح الاسناد ..

وليس في ذلك معارضة للقضاء والتقدير .. لأن الدعاء من القضاء ومن التقدير .. وقد جعله الله سببا لتخفيف البلاء ، وزوال النقم .

واتباعا لهدى القرآن ، وتأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واطهارا للعبودية الخالصة لله سبحانه ، والتجاء الى الله لكشف السوء صغيرا كان أو كبيرا .. التجأ الصالحون دائما الى الله بالدعاء ..

وعلى هذا النسق سار شيخ الصوفية : ابراهيم بن أدهم .
لقد كان لابراهيم بن أدهم ورد يومي ، يرويه عنه ابراهيم ابن بشار :

كان ابراهيم بن أدهم — حسبما يروي ابن بشار — يقول هذا الكلام في كل جمعة اذا أصبح عشر مرات ، واذا أمسى يقول مثل ذلك :

« مرحبا بيوم المزيّد ، والصبح الجديد ، والكاتب الشهيد .. يومنا هذا يوم عيد ، اكتب لنا فيه ما نقول :

« باسم الله الحميد المجيد ، الرفيع الودود ، الفعال في خلقه ما يريد .. أصبحت بالله مؤمنا ، وبلقاء الله مصدقا ، وبجنته معترفا ، ومن ذنبي مستغفرا ، ولربوبية الله خاضعا ، ولسوى الله جاحدا ، والى الله تعالى فقيرا ، وعلى الله متوكلا ، والى الله منيبا .. أشهد الله ، وأشهد ملائكته ، وأنبياءه ، ورسله ، وحمله

عرشه ، ومن خلق ، ومن هو خالق ، بأن الله لا اله الا هو وحده
لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .
وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ،
ومنكرا ونكيرا حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعة آتية
لا ريب فيها ، وإن الله يبعث من في القبور .. على ذلك أحيا ،
وعليه أموت ، وعليه أبعث إن شاء الله ..

اللهم أنت ربى لا رب لى الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ،
وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك اللهم من شر
كل ذى شر ، اللهم انى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى ، انه لا يغفر
الذنوب الا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، فانه لا يهدى
لأحسنها الا أنت ، واصرف عني سيئها فانه لا يصرف سيئها
الا أنت .. لبيك وسعديك ، والخير كله بيدك وأنا لك ..
أستغفرك وأتوب اليك .. آمنت اللهم بما أرسلت من رسول ،
وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب .. صلى الله على محمد وعلى
آله وسلم كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه .. وعلى أنبيائه ورسوله
أجمعين .. آمين ، يا رب العالمين ..

اللهم أوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه ، مشربا مريا ، سائغا
هنيا ، لا نظماً بعده أبدا ، واحشرنا فى زمرة ، غير خزاى ، ولا
ناكسين ، ولا مرتابين ، ولا مقبوحين ، ولا مغضوبا علينا ، ولا
ضالين ..

اللهم اعصمني من فتن الدنيا ، ووفقني لما تحب من العمل وترضى ، وأصلح لى شأنى كله ، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولا تضلنى وإن كنت ظالما .. سبحانك سبحانك .. يا على يا عظيم ، يا بارىء يا رحيم ، يا عزيز يا جبار ، سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها ، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها ، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها ، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها ، وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراقها ، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها ونضارتها ، وسبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع ، ومن فيهن ، ومن عليهن ، سبحانك سبحانك يا حى يا حلیم ، سبحانك لا اله الا أنت وحدك .

على أن ابراهيم بن أدهم ، ما كان يكتفى بهذا الدعاء .. وانما كانت له كلمات جميلة هى على لسانه فى كل لحظة .. منها مثلا ، ما يخبر به عبد الله الملطى وغيره :

« كان عامة دعاء ابراهيم :

اللهم انقلنى من ذل معصيتك الى عز طاعتك » .

وكان لابراهيم بن أدهم دعاء فى الشدائد معروف :

لقد كان يتجه الى الله بكيانه كله ، قائلا :

« يا حى حين لا حى ، ويا حى قبل كل شىء ، ويا حى بعد

كل شيء .. يا حي ، يا قيوم ، يا محسن ، يا مجمل .. قد
أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك .

وكان له دعاء للحفظ مجرب .. لقد جربه مثلاً إبراهيم بن
بشار وقال :

« انى لأقوله على ثيابى وتفقتى ، فما فقدت منها
شيئاً » ..

ولقد كان إبراهيم بن أدهم يعلمه لأصحابه ، كان يقول
لهم اذا اجتمعوا :

« ما على أحدكم اذا أصبح واذا أمسى أن يقول :

« اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام ، واحفظنا بركنك الذى
لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت الرجاء »

ويقول خلف — كما يروى كتاب الحلية — : « فأنا أسافر
منذ نيف وخمسين سنة ، فأقولها : لم يأتنى لص قط ، ولم أر
الا خيراً » ..

ولقد سئل إبراهيم بن أدهم عن السبب فى أن بعض الناس
يدعوا فلا يستجاب له .. ويروى شفيق البلخى فى ذلك أن
إبراهيم بن أدهم مر يوماً فى أسواق البصرة ، فاجتمع الناس
إليه ، فقالوا : « يا أبا اسحاق : ان الله تعالى يقول فى كتابه :

« ادعوني أستجب لكم » ونحن ندعوه منذ دهر ، فلا يستجيب لنا ؟ . فقال ابراهيم :

يا أهل البصرة ، ماتت قلوبكم في عشرة أشياء :

أولها : عرفتم الله ، ولم تؤدوا حقه ..

الثاني : قرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به ..

الثالث : ادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتركتم سنته ..

الرابع : ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ..

الخامس : قلمت نحب الجنة ولم تعملوا لها ..

السادس : قلمت نخاف النار ، ورهنتم أنفسكم بها ..

السابع : قلمت ان الموت حق ولم تستعدوا له ..

الثامن : اشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم ..

التاسع : أكلتم نعمة ربكم ، ولم تشكروها ..

العاشر : دفتتم موتاكم ، ولم تعتبروا بهم ..

وقال ابراهيم بن أدهم ، يوما ، لرجل :

« تريد أن تدعو ؟ .. كل الخلال وادع بما شئت » ..

وابراهيم بن أدهم في هذا يتابع الحديث الشريف — فيما روى عن ابن عباس قال :

«تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا » .. فقام سعد بن أبي وقاص ، فقال :

يا رسول الله ؟.. ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة .. فقال :

يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده !.. ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت فالنار أولى به » ..

وبعد :

فقد كان لابراهيم بن أدهم مناجاة :

« اللهم انى لم آت الذنوب جراءة عليك ولا استخفافا بحقك ، ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، والمعذرة اليك .

لقد كان ابراهيم بن أدهم متعبدا ، يغلب عليه طابع التفكير في خلق السماوات والأرض ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان سخيا .. وكل هذا تحدثنا عنه — بيد أننا اذا اقتصرنا على ذلك، فان الصورة التي نقدمها عن ابراهيم بن أدهم تكون ناقصة ..

ومن أجل اتمام هذه الصورة ، فأننا نعود الى أسفاره التي ذرع
فيها أرض الله ذهابا وجيئة ، متفكرا ، متأملا ، متعظا واعظا ..
ان الكثير من هذه الأسفار كان متجردا للجهاد فى سبيل الله
لقد جاهد ابراهيم بن أدهم فى البر ، وجاهد فى البحر .. يروى
صاحب الحلية عن أحمد بن بكار قال :

« غزا معنا ابراهيم بن أدهم غزاتين ، كل واحدة أشد من
الأخرى .. غزاة عباس الأنطاكي ، وغزاة محكاف .. فلم يأخذ
سهما ولا نفلا (١) ، وكان لا يأكل من متاع الروم ، نجىء
بالطرائف والعسل والدجاج ، فلا يأكل منه ويقول : هو حلال
ولكنى أزهد فيه .. كان يأكل مما حمل معه ، وكان يصوم ..
قال : وغزا على بردون (٢) ثمنه دينار .. وكان له حمار فعارض
به ذلك البردون .. وكان لو أعطيته فرسا من ذهب أو من فضة
ما كان قبله ، ولا يقبل شربة من ماء .. وغزا فى البحر غزاتين لم
يأخذ سهمه ، ولا يفترض .. قال على : هذا الغازى .. قال على :
ومات ابراهيم فى صائفة السفر بالبطن » ..

وعن أشعث بن شعبة قال :

« غزونا غزوة ومعنا ابراهيم بن أدهم ، فأصابتنا مخمصة
فى أنفسنا ، وفى دوابنا ، فسمع أهل المصيصة بذلك ، فبعثوا

(١) أى : غنيمة .

(٢) أى : دابة .

بالبغال عليها الزاد الى الدرب ، فسمعت ابراهيم يقول : أى متكلف أخبر الناس بهذا ؟ .. قال أشعث :

كأنه يشتهي أن تكون على حالنا حتى ندخل ، فلما دخل مضى كما هو فلم ينزل المصيصة ، فقال لى أبو اسحاق الفرارى : اطلب ابراهيم .. فطلبتة ، فاذا هو قد مر .. فقال لى : الحقه ، وأعطاني نفقة .. فلحقته بأنطاكية ، فقال لى حين رآنى : قد جئت ؟ .. قلت : نعم ، أبو اسحاق بعثنى ، فأعطيته النفقة ، فقبلها ، فلما أردت الرجوع أعطاني ازارا وقال لى : اذهب بهذا الى أبى اسحاق .. قلت :

ما منعك أن تنزل بالمصيصة ؟ .. فقال : على من أنزل ؟ .. فذكر أهل المصيصة ، حتى ذكر شريكا فقال : لو قسمت خمسة دراهم فى السبيل ، جاء شريك ينافس فيها ..

وتدل هذه القصص على الطابع النفسى والأخلاقى لابراهيم فى غزوه .. انه ما كان يغزو من أجل المغنم ، انما كان يجرد همته كلية لله تعالى ، لا يبغي من وراء ذلك حطام الدنيا ، ولا يبغي جزاء ولا شكورا من أحد .. انه ما كان يبغي الجزاء الا من الله سبحانه ،

قرأ ابراهيم القرآن الكريم ، وتمعن فيه .. ودرس الحديث الشريف فى استفاضة ورأى ما للجهاد من فضل ، فأحب أن يشرف على الجنة من تحت ظلال السيوف كما يقول رسول

الله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت ظلال السيوف » .. وأحب
أن يتاجر مع الله :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من
عذاب أليم ، وتؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله
بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم
ذنوبكم ويدخلكم جناب تجري من تحتها الأنهار ومساكن
طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر
من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » (١) .

وأحب أن يدخل في دائرة هؤلاء الذين اشترى الله منهم
أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم
الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا
في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بمعهده من الله ،
فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٢)

لقد قرأ ابراهيم بن أدهم فيما قرأ قوله تعالى :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله

لا يحب المعتدين (٣) »

(١) الصف : ١٠ - ١٣

(٢) التوبة ١١١

(٣) البقرة ٢٩٠

وقوله :

« وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم » (١)

وقوله :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢)

وقوله :

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٣) .

وعرف فيما عرف من الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم :
تضمن الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرج له الا جهاد في سبيلي ،
وايمان بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ،
أو أرجعه الى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو
غنيمة .. والذى نفس محمد بيده ، ما كلم يكلم في سبيل الله
الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم ، وريحه

(١) البقرة : ٢٤٤

(٢) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

(٣) البقرة : ١٥٤

ريح مسك .. والذي نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني .. والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » (١)

وما رواه أبو هريرة : — رضى الله عنه — قال :

— مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيئة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال :

لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ .. اغزوا في سبيل الله ، .. من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » (٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم واللفظ له .. والنسائي - والكلم : الجرح

(٢) رواه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه ..

« ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » (١)

وأدرك هذه الموازنة الصارخة بين الجهاد والعبادة فيما روى من الأحاديث التالية :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ ..

قال : « لا تستطيعونه » — فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول :

« لا تستطيعونه » .. ثم قال :

« مثل المجاهد في سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله » (٢) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ — قال : « ايمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ .. قال : « الجهاد في سبيل الله » .. قيل : ثم ماذا ؟ .. قال : حج مبرور » (٣)

(١) رواه البخارى ..

(٢) البخارى ومسلم واللفظ له ..

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ..

ويوضح ذلك قوله تعالى :

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا
عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم
لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطئون
موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به
عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين .. ولا ينفقون نفقة
صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله
أحسن ما كانوا يعملون » (١)

وإذا أفضى الجهاد الى الاستشهاد ، فإن مصير الشهيد
السعادة الدائمة والنعيم المقيم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« لما أصيب اخوانكم جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ،
ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب ،
معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم
قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا
يزهدوا في الجهاد ، ولا يتركوا عن الحرب ؟ .. فقال الله تعالى :
أنا أبلغهم عنكم .. قال : فأنزل الله عز وجل :

(١) التوبة : ١٢٠ ، ١٣١

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا » الى آخر الآية « (١) .

وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار — الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها — ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه » (٢) .

ومحال أن تكون هذه الصورة الاسلامية عن الجهاد واضحة في ذهن مسلم ، الا ويلقى بنفسه في معمعان الحرب مجاهدا في سبيل الله ..

وقد ألقى ابراهيم بنفسه في الجهاد متجردا عن كل ماسوى مرضاة الله سبحانه .. ومما رواه من الأحاديث في ذلك :

ما رواه عن هشام بن حسان ، عن يزيد الرقاشي ، عن بعض عمات النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) آل عمران : ١٦٩

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح غريب

« شهيد البر يغفر له كل ذنب إلا الدين والأمانة ، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة » (١) ..

وما رواه عن حماد بن أبي سليمان قال : « الطعن في الجهاد نزع من الشيطان »

وروى عن يونس بن عبيد قال : « ماندمت على شيء ندامتي أن لا أكون أفنيت عمري في الجهاد » ..

وهذه الصورة لشيخ الصوفية الذي ترك الترف والنعيم ولذة الدنيا ونعيمها ، وآثر بحبوحه الجنة .. هذه الصورة نقدمها الى هؤلاء الذين يحبون دائما أن يزينوا الصورة عن التصوف والصوفية .. فيصفونهم بأنهم سلبيون ، اننا نحب أن نرى جهاد الذين ينتقدون التصوف ، ونحب أن نرى آثارهم في ساحة الشرف والبطولة ، ساحة الجهاد في سبيل الله » ..

ابراهيم بن أدهم : هل هو :

أعرض عن متاع الدنيا وطيباتها في سبيل الله ؟ .. نعم .
متعبدا ؟ .. نعم .

يأكل من عمل يده ؟ .. نعم .

سخى متصدق ؟ .. نعم .

مجاهد لا يبالى على أى جنب كان فى الله

مصرعه ؟ .. نعم .

هل كملت صورة ابراهيم بن أدهم ؟ .. كلا

ما الذى ينقصها ؟ ..

ينقصها الحديث عن ابراهيم بن أدهم العالم . .

الفصل الثاني

المحدث

المحدث

الام بلغ ابراهيم بن أدهم من العلم قبل توبته ؟.. كيف
تشقف في طفولته وشبابه ؟ ذلك مالا ندريه ..

ولكن الذى نعرفه : هو أن ابراهيم بن أدهم درس الحديث
الشريف الى الحد الذى جعل مؤرخى الحديث يذكرونه فى
كتبهم مقدرين له ، وذاكرين من روى عنهم ، ومن أخذوا
عنه ..

ولقد روى عن جماعة من التابعين وتابعى التابعين ، وممن
روى عنهم : أبو اسحاق : عمرو بن عبد الله السبيعي ، الذى
رأى عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسمع من البراء بن
عازب رضى الله عنه ..

ومن روى عنهم : يحيى بن سعيد الأنصارى ، وسعيد بن
المرزبان ، ومقاتل بن حيان النبطى ، ويزيد الرقاشى ، ومالك بن
دينار .. وروى عن الثورى ، وروى الثورى عنه ..

أما من روى عنه : فمنهم : خادمه ابراهيم بن بشار ، وبقية
ابن الوليد ، وشقيق البلخي ، وأبو اسحاق الفارابي ..
وفيما يتصل بتقديره والثقة به ، فقد قال صاحب التقريب
عنه :

صدوق : خرج له البخاري في الأدب ، والترمذي ..
وقال النسائي :

ثقة ، مأمون ، أحد الزهاد ..

وقال الدارقطني :

إذا روى عنه ثقة ، فهو صحيح الحديث

وقال ابن معين :

عابد ثقة

وقال ابن نمير العجلي :

ثقة

وذكره ابن حبان في الثقات (١)

وما كان لابراهيم بن أدهم — وهو يحب أن يتأسي برسول
الله صلى الله عليه وسلم — إلا أن يدرس الحديث ، وقد سار

(١) انظر : تهذيب التهذيب ، والعلية ، والكواكب الدرية.

في هذا على نسق المعاصرين له من الصوفية ، الذين قرءوا قول
الله تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ..

والدرجة التي بلغها ابراهيم بن أدهم من العلم درجة نفيسة
.. انها درجة تضعه في مرتبة المحدثين الثقاب ، بيد أنه يجب أن
لا يعزب عن أذهاننا أن ابراهيم بن أدهم عابده زاهد ، يطلب
العلم من أجل العمل ، ويرغب في العلم من أجل تطبيقه .. يقول
صاحب الحليه :

« لم تكن الرواية من شأنه ، فلذلك يقل حديثه »

في الايمان :

لقد سار شيخ الصوفية — في سلوكه وفي فكره — على
أن الايمان تصديق وقول وعمل . انه تصديق بالجنان ، وقول
باللسان ، وعمل بالجوارح ..

ويروى شيخنا في ذلك ، عن عبد الله بن شوذب ، عن ثابت
البناني ، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين ، عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يعذب الموحدين بقدر نقصان ايمانهم ،
ثم يردهم الى الجنة خلودا دائما » ..

والحديث صريح في أن الايمان ليس تصديقا فحسب ..

وما من شك في أن أساس الايمان الذي لا يقوم الايمان بدونه ، انما هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقضاء خيره وشره .. وهذا لا يمارى فيه أحد .. ثم يأتى بعد ذلك البناء .. وقد يرتفع هذا البناء سامقا في جو السماء ، مشرقا كضياء النجوم .. وقد لا يرتفع البناء عن الأرض الا قليلا ، ويكون باهتا خافتا ..

ولقد أعلن القرآن صراحة أن الايمان ليس تصديقا فحسب ، وممن أوضح هذا المبدأ الاسلامى الصادق ، الامام البخارى - رضى الله عنه - .. انه يقول في أول كتاب الايمان :

« باب الايمان وقول النبى صلى الله عليه وسلم : بنى الاسلام على خمس .. وهو قول وفعل ويزيد وينقص .. قال الله تعالى : « ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » .. ، « .. » وزدناهم هدى .. ، « .. » ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .. ، « .. » والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .. « ويزداد الذين آمنوا ايمانا » .. وقوله : « أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا » . وقوله جل ذكره : « فاخشوهم فزادهم ايمانا » .. وقوله تعالى : « وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .. والحب في الله والبغض في الله من الايمان ..

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى :

ان للايمان قرائض وشرائع، وحدودا وسننا، فمن استكملها
استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان
أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وان أمت فما أنا على
صحبكم بحريص ..

وكتاب الايمان من صحيح البخارى ، ينحو كله نحو هذه
الفكرة ، وعشرات الأحاديث فيه تؤيدها ..

ولقد سبق أن كتبنا فى هذا الموضوع ، فى كتابنا « الاسلام
والايمان » فى شىء من الاستفاضة ، ومما كتبناه :

واذا كان هذا رأى البخارى - رضى الله عنه - ، فان
أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى :

« مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها ، أن
الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » .

ويقول عبد الرزاق : حسبما يذكر الامام النووى فى شرح
مسلم :

« سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفیان
الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر ، والأوزاعى ،
ومعمر بن راشد ، وابر جريج ، وسفیان بن عيينة ، يقولون :
« الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » ..

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعي ، والحسن
البصري ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعبد الله بن
المبارك ..

ويتابع عبد الرزاق الحديث ، فيقول :

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين،
هو اتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والاقرار
باللسان ، والعمل بالجوارح . وذلك أنه لا خلاف بين الجميع
أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه ، لا يستحق
اسم مؤمن .. ولو عرف وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف
من التوحيد ، لا يستحق اسم مؤمن .. وكذلك اذا أقر بالله تعالى،
وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولم يعمل بالفرائض
لا يسمى مؤمنا بالاطلاق ، وان كان فى كلام العرب يسمى
مؤمنا بالتصديق ، فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى، لقوله
عز وجل :

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا
تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون .. الذين
يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .. أولئك هم المؤمنون
حقا » ..

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه
صفته ..

وما ذكره عيد الرزاق يؤيده ابن بطل في باب من قال :

« الايمان هو العمل » من شرح صحيح البخارى ،
فيقول :

فان قيل : قد قلتم ان الايمان هو التصديق ...

قيل : التصديق هو أول منازل الايمان ، ويوجب للمصدق
الدخول فيه ، ولا يوجب له استكمال منازلها ، ولا يسمى
هو منا مطلقا ...

هذا مذهب جماعة أهل السنة : أن الايمان قول وعمل ...

قال أبو عبيد : وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن
يعدّهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصايح الهدى
وأئمة الدين ، من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم ...

قال ابن بطل : وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله اثباته
في كتاب الايمان ، وعليه يوبى أبوابه كلها فقال :

باب أمور الايمان .

وباب الصلاة من الايمان ..

وباب الزكاة من الايمان .

وباب الجهاد من الايمان ..

وسائر أبوابه ..

وانما أراد الرد على المرجئة في قولهم : ان الايمان قول
بلا عمل ، وتبيين غلطهم ، وسوء اعتقادهم ، ومخالفتهم للكتاب
والسنة ومذاهب الأئمة ..

وينهج الامام الطبرى هذا النهج أيضا ، فيقول :

« الايمان : كلمة جامعة : الاقرار بالله وكتبه ورسله ،
وتصديق الاقرار بالفعل » .

ولقد سار شيخنا على نهج أسلافه من أئمة الهدى .. وما كان
اجتهاده في العبادة ، وفي الجهاد ، الا بعض أعلام ايمانه
العميق ..

ومن مروياته في الايمان :

روى عن محمد بن عجلان ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ،
عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« المؤمن يسير المؤونة »

وروى عن أبى عبد الله الخراسانى قال : قال عمر بن
الخطاب :

« من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل
ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون » ..

وروى عن عمران بن مسلم القصير قال :

« ان الحكمة لتكون في قلب المنافق تتلجلج ، فلا يصبر عليها حتى يلقيها ، فيتلقاها المؤمن فينفعه الله بها » ..

وروى عن بحر السقا البصرى قال : حدثني بعض الفقهاء قال :

« الحياء خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعلم دليله ، والعمل فقهه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق والده ، والبر أخوه » ..

وروى عن أبي حازم المدينى قال :

« من أعظم خصلة المؤمن أن يكون أشد الناس خوفا (١) على نفسه ، وأرجاه لكل مسلم » .

وروى عن محمد بن عجلان قال :

« المؤمن يحب المؤمن حيث كان » ..

فى السيرة :

روى ابراهيم بن أدهم ، عن أيوب ، عن حميد بن هلال ، عن أبي بردة قال :

(١) أى خوفا على نفسه من مقت الله ، أو من سوء الخاتمة ، فهو فى تقوى دائمة لعل الله يتقبل .

« أخرجت الينا عائشة كساء ملبدا ، وازارا غليظا ،

وقالت :

« في هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »

في الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم :

وروى عن محمد بن عجلان ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من صلى على يوم الجمعة مائة مرة ، جاء يوم القيامة ومعه نور ، لو قسم ذلك النور بين الخلق كلهم لوسعهم »

قيمة الأعمال :

روى ابراهيم ، وابن جريج ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن ابراهيم التيمي ، عن علقمة بن وقاص ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » ..

يقول صاحب الحلية : هذا من صحاح الأحاديث وعيونها ، رواه عن يحيى بن سعيد التميمي الغفير .

الخير :

روى ابراهيم ، عن أعين قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول :

« من هم بصلاة أو صيام أو عمرة أو حج أو شيء من الخير ، ثم لم يفعل ، كان له ما نوى » .

وروى ابراهيم — بسنده — عن سعيد بن المسيب قال :

« من هم بصيام أو صدقة أو حج أو عمرة أو شيء من الخير ، فحال دونه حائل كتب الله أجره » ..

في الوضوء :

روى ابراهيم ، عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن جرير بن عبد الله قال :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الخفين » ..

وروى عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن جرير بن عبد الله الجعفي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الخفين » .. ف قيل لجرير : بعد نزول المائدة ؟ .. قال :

« إنما كان إسلامي بعد نزول المائدة » ..

قال ابراهيم :

« وكان هذا الحديث يعجبهم » ..

في الصلاة :

روى ابراهيم ، عن مقاتل بن حيان ، عن أنس بن مالك قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة ، والصلاة في
مسجدي عشرة آلاف صلاة ، والصلاة في مسجد الرباطات ألف
صلاة » ..

وحدث ابراهيم ، عن الأوزاعي .. قال المفضل : فلقيت
الأوزاعي فحدثني عن قتادة كتب اليه يذكر عن أنس قال :

« صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر
رضى الله تعالى عنهما ، فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب
العالمين » ..

وحدث ابراهيم ، عن أبيه أدهم بن منصور العجلي ، عن سعيد بن
جبير ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسجد على كور
العمامة » ..

وروى ابراهيم ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه
رأس حمار ؟ » ..

فى حسن الخلق :

روى ابراهيم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ، قال :

« جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله ! .. ما تفسير حسن الخلق ؟ فسكت رسول
الله صلى الله عليه وسلم .. ثم قال :

يا رسول الله ، ما تفسير حسن الخلق ؟ .. فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

« انما تفسير حسن الخلق ، ما أصاب من الدنيا يرضى ،
وان لم يصبه لم يسخط » .

من هدى النبوة :

روى ابراهيم ، عن عباد بن كثير بن قيس قال :

« جاء رجل عليه بردة له ، فقعد الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم .. ثم جاء رجل عليه أطمار له ، فقعد .. فقام الغنى
بثيابه ، فضمها اليه .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

أكل هذا تقذرا من أخيك المسلم ؟ .. أكنت تحسب أن
يصيبه من غناك شيء ، أو يصيبك من فقره شيء ؟ .. فقال الغنى :

معذرة الى الله والى رسوله ، من نفس أماراة بالسوء ، وشيطان

يَكِيدَنِي ... أَشْهَدُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّ نَصَفَ مَالِي لَهُ ... فَقَالَ الرَّجُلُ :

مَا أُرِيدُ ذَاكَ ؟ ... فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لِمَ ذَاكَ ؟

قَالَ : أَخَافُ أَنْ يَفْسِدَ قَلْبِي كَمَا أَفْسَدَهُ » ..

... وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

... وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

... وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

... وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

« لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَصَرَفَهُ فِي سَبِيلِ

الْخَيْرِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا فَعَلِمَهُ وَعَمِلَ بِهِ » ..

... وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

... وَرَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ : سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَجْلَانَ يَذْكُرُ عَنْ

أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ » ..

وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ الصَّائِغِ ، عَنْ عِكْرَمَةَ ، عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« مَنْ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا ، وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضَعًا لِلَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ وَابْتِغَاءَ وَجْهِهِ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْسُوهُ مِنْ عِبْقَرَى

الْجَنَّةِ فِي تَخَاتِ الْيَاقُوتِ » ..

في الخير :

روى ابراهيم بن أدهم ، عن محمد بن عجلان ، عن سهل
ابن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال :

« من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ، خيره الله تعالى من
الحدور العين يوم القيامة ، ومن ترك ثوب جمال وهو قادر عليه
ألْبسه الله تعالى أو كساه رداء الايمان يوم القيامة ، ومن أنكح
عبد الله ، وضع الله على رأسه تاج الملك يوم القيامة » ..

كظم الغيظ :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن أنس رضي الله عنه ، عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ، خيره الله تعالى من
الحدور العين يوم القيامة .. الحديث ..

وقال ابراهيم بن أدهم : كان قتادة يقول :
« أفضل الناس ، أعظمهم عن الناس عفوا ، وأوسعهم له
صدرا » .

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن
عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غشيتكم السكرتان : سكرة حب العيش ، وحب الجهل :
فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر .. والقائمون
بالكتاب وبالسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والانصار » ..

فى العلم والعلماء

فى العلم :

روى ابراهيم عن شعبة بن الحجاج قال : أنبأنا أبو اسحاق
الهمداني ، عن سعيد بن وهب ، عن عبد الله بن مسعود قال :
« لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من علمائهم وكبرائهم
وذوى أسنانهم ، فاذا أتاهم العلم عن صغارهم وسفهاءهم فقد
هلكوا » ..

العالم والفتنة :

قال ابراهيم : حدثني أبو اسحاق الهمداني ، عن عمارة
الأنصاري ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

« ان الفتنة تجيء فتتسف العباد نسفا ، وينجو العالم منها
بعلمه » ..

وروى ابراهيم قال : حدثنا مالك بن دينار ، عن أنس قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رأيت ليلة أسرى بى ، رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار .. فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ .. قال :

هؤلاء خطباء أمتك ، يأمرون بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ » ..

فى الدعاء :

روى ابراهيم : عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان كثيرا ما يقول :
« اللهم ثبت قلبى على دينك » ..

من الآداب مع النساء :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن الزبيدى ، عن عطاء الخراسانى يرفع الحديث قال :

« ليس للنساء سلام ، ولا عليهن سلام » ..

قال الزبيدى : أخذ على النساء ما أخذ على البحيات أن ينجحرن فى بيوتهن ..

من هم أهل الكتاب ؟ ..

روى ابراهيم بن أدهم ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :

« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذبيحة نصارى العرب » .

في الجنة :

قال ابراهيم : روى الربيع بن صبيح ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا استقر أهل الجنة في الجنة ، اشتاق الاخوان الى الاخوان ، فيسير سريذا الى سريذا ، فيلتقيان فيتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا ، ويقول : يا أخى : تذكر يوم كذا .. كنا في دار الدنيا في مجلس كذا فدعونا الله ، فغفر لنا » ..

وقال ابراهيم : حدثني أبو ثابت قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« حسبي رجائي من خالقي ، وحسبي ديني من دنياي » ..

الفصل الثالث

الاخلاق

الأخلاق فى عرف شيخ الصوفية

ان الله سبحانه وتعالى ، وضع قوانين لسعادة الفرد ، ووضع
نظما لسعادة المجتمع ، وبين ذلك على السنة رسله ..

ورسل الله مبشرون ومنذرون : انهم يبشرون من اتبع هدى
الله بالسعادة ، ويشرحون هدى الله فى مختلف جوانبه ، وينذرون
من انحرف عن هديه بالشقاء ..

وما دام الانسان مؤمنا بالله ورسوله ، فانه لا محالة موقن
بصدق المبادئ التى رسمها الله لسعادة الفرد ولسعادة المجتمع ،
وأنها قوانين صادقة هى أصدق من القوانين الطبيعية فى عالم
الكون المادى ..

ولو اعتصم الانسان بالله ، واتبع فى نفسه ما رسمه الله له
كفرد .. لسعد فى حياته الدنيا وفى الآخرة ..

ولو اعتصم المجتمع بالله ، واكتفى بالله هاديا ونصيرا ،
لسعد المجتمع وتحقق له الأمن والطمأنينة ..

ولكن بشرية الانسان تتحكم فيه ، وتسيطر عليه ، وتخرجه بذلك من جو الالهية المعصوم ، لتجسسه في اطار بشريته ، فيرسم لنفسه بنفسه الطريق الذي يسير عليه فردا ، والطريق الذي يسير عليه مجتمعا ..

ان الانسان بغرائزه متأله .. ومن أجل ذلك انصرف — دون شعور واضح منه — أو مع الشعور الواضح — عن التشريع الالهى الى تشريع يشرعه هو ..

ومن هنا كانت هذه المذاهب المتعددة فى الأخلاق .. وهل الأخلاق الا رسم السلوك الفردى فى الحياة ، ورسم السبوك للمجتمع فى مسيرته عبر الزمن ..

لقد بدأ سقراط يبشر بالسعادة ، تتمثل — فيما رأى — فى القناعة ، وأن لا يرغب الانسان الا فيما هو فى متناول يده .. أى : أن يحدد كل انسان رغباته بحسب امكانياته .. وبدأت أوامره للفرد : لا تشته الا ما تستطيع الحصول عليه ، لا تطمح الا فيما تستطيع تحقيقه ، لا تتطلع الا الى السهل الميسور وأخذ سقراط يتدرج مع فكرته التى قادته الى نصيح الانسان بأن يقلل مطالبه ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ويقول سقراط :

« ان الكمال لله وحده ، والكمال هو أن لا تحتاج الى شئ ، فكلما قلت المطالب والحاجات كلما كان ذلك قربا من

الكمال .. وبالتالي قربا من الله سبحانه .. وكلما كثرت الحاجات والمطالب ، كان ذلك بعدا عن الكمال ، وبالتالي بعدا عن الله سبحانه » .

وعاش سقراط يحاول تحويل فكرته النظرية الى واقع ، فكان يسير حافيا لأن الحذاء — حسبما رأى — لا حاجة له .. وكان يأكل الغليظ من الطعام ، ويلبس الغليظ من الثياب ، ويسير كما يقول على مبدأ القناعة ..

ومنذ أن ظهرت فكرته الى المجتمع ، عارضه الآخرون ، وأعلنوا أن العبد الرقيق ، لو عاش كما يعيش سقراط لهرب من سيده في جنح من الليل ..

وافلاطون نفسه — تلميذ سقراط الأمين ، وضع مذهبا يغاير مذهب أستاذه :

النعيم ، الملذات ، الترف ؟ .. من الذى يعارض ذلك ؟ .. من الذى يعارض فى طيبات الحياة الدنيا ونعيمها ؟ .. من الذى يعرض عن متاع الدنيا وما فيها من الخيرات ؟ ..

ان النعيم والملذات جزء — فيما رأى افلاطون — من السعادة ، ولا بد لتحقيق السعادة ، من أن يضاف الى ذلك العلم .. فالسعادة شطرها ملاذ ، وشطرها الثانى علم — واذا ألفت الانسان بين العلم والملاذ فى تنسيق منسجم كان سعيدا ..

ويأتى أرسطو فلا يعبأ بكل ذلك ، ويرى ويعلن أن السعادة
حكمة وعقل ، ويتمثل في التوسط في كل الأمور ..

ويسخر أبيقور من كل ذلك ، ويرى أن السعادة تتمثل في
الاستمتاع ..

ويسير الزمن ، ومع سيره تتعدد المذاهب والآراء ، ينقض
بعضها بعضا ، ويهدم بعضها بعضا .. فاذا ما وصلنا الى العصر
الحديث ، والنهضة الأوروبية - وهى نهضة تتسم بالمادية -
ظهرت مذاهب المنفعة الشخصية ، أو المنفعة العامة .. وهذه
المذاهب تؤسس السلوك على ما يثمر العمل من منفعة عامة أو
خاصة ، ولا تضع في ميزانها الفضيلة أو الخير ..

وشقيت الانسانية بكل ذلك ..

١٠. أن هذه العصور لم تحتل قط ، من صوت ينادى
بالرجوع الى الرحاب الالهى .. رحاب العصمة والسعادة
الحقيقية .. وينطلق هذا الصوت ، من النبى - ثم يتابعه
حواريون ، وأصحابه ، وأنصاره ، والصالحون من بعدهم ..

وتمثل هذا الصوت فى نصوص الهية ، وفى أحاديث شريفة
ومهما تعددت أساليب الدعوة الى السعادة فى أعراف المؤمنين ،
فإن المعنى لا يختلف من عصر الى عصر ، ولا من بيئة الى بيئة .
ان الجميع ينادون :

« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (١) » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٢) » ..

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون .. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون .. نزلا من غفور رحيم (٣) » .

« استغفروا ربكم انه كان غفارا .. يرسل السماء عليكم مدرارا .. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (٤) » .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٥) » ..

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٦) » ..

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤

(٢) النحل : ٩٧

(٣) فصلت : ٣٠ - ٣٢

(٤) نوح : ١٠ - ١٢

(٥) الطلاق : ٣

(٦) الطلاق : ٤

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (١) » ..

« يا غلام : احفظ الله يحفظك .. احفظ الله تجده تجاهك ..
اذا سألت فاسأل الله .. واذا استعنت فاستعن بالله .. واعلم ان
الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه
الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك الا بشيء قد
كتب الله عليك .. رفعت الأقلام وجفت الصحف (٢) » ..

« من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب .. وما تقرب الي عبدي
بشيء أحب الي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب الي
بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ،
وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي
بها .. وان سألني لأعطينه وان استعاذني لأعيذنه .. وما ترددت
عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا
أكره مساءته (٣) » ..

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه .. من كان في حاجة
أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله
عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله
يوم القيامة (٤) » ..

(١) الحج : ٤٠

(٢) رواه الترمذی

(٣) رواه البخاری

(٤) متفق عليه

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة .. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه (١) » ..

ان لله سبحانه وتعالى حدودا .. من خرج عنها فهو الشقي ، ومن سار في إطارها فهو السعيد ..

ولقد أخذ ابن أدهم يبشر بالأخلاق كما رسمها الله سبحانه في محكم كتابه ، وعلى سائر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من ثمرة ذلك مجموعة من النصائح والمواعظ والحكم من أنفس ما يكون ..

وهو وان لم يضعها في نظام مذهبي على الوضع الحديث ، وهو وان لم ينسقها في أبواب وفصول ، فان الميزة التي تتسم بها هي بقاؤها مشربة بطابع النضرة ، وبطابع الروحانية ..

ونحن نحب أن نوردها بطابعها ، دون أن ندخل فيها أثر الصنعة المستحدثة ، من تنضيد أو ترتيب .. وان كنا مع ذلك قد قدمنا من آثاره في ذلك ما يتصل على الخصوص بالهدف ..

حدث يونس بن سليمان أبو محمد البلخي قال :

قرأت كتاب ابراهيم بن أدهم الى عبد الملك مولاه :

أما بعد : أوصيك بتقوى الله .. انه جاء في كتابك — فوصلك الله — تذكر ما جرى بيننا ، فمن رعى حق الله وفرحظه وسلم منه الناس .. ومن ترك حظه ولم يراقب حقه ولع به الناس وذلك الى الله ، ولا حول لنا ولا قوة الا بالله .. ثم ان القوم ناس مثلكم ، يغضبون ويرضون ، فكان الذى يقومهم اليه يرجعون ، وبه يقنعون ، وبه يأخذون ، وبه يعطون .. فأنتى عليهم أحسن الثناء ، فاقتدوا بآثارهم وأفعالهم حتى أنتم على ملتهم .. وتمنون منازلهم .. ثم ان الله تعالى أحسن إلينا وأبقانا بعد الجيران ، فنعوذ بالله أن يكون ابقاؤنا لشر ، فانه لا يؤمن مكره ، والأعمال بالخواتيم .. وانه من خافه لم يضع ما يحب ، ولم يتكلم بما يشتهى ..

وينبغى لصاحب الدين أن يرجو فى الكلام ما يرجو فى الفعل ، وأن يخاف منه ما يخاف من الفعل ، وذلك الى الله .. فان استطعت أن لا يكون عندك أحد هو أثر من الله فراقبه فى الغضب والرضا ، فانه يعلم السر وأخفى ، ويغفر ويعذب ، ولا منجا منه الا اليه ..

فان استطعت أن تكف عما لا يعينك ، وأن تنظر لنفسك ، فانه لا يسعى لك غيرك ..

ان الناس قد طلبوا الدنيا بالغضب والرضا ، فلم ينالوا منها

حاجتهم ، وانه من أراد الآخرة ، كان الناس منه في راحة ،
لا يخدع من ذلها ، ولا ينازعهم في عزها .. هو من نفسه في
شغل ، والناس منه في راحة ..

فاتق الله وعليك بالسداد ، فان من مضى انما قدموا على
أعمالهم ، ولم يقدموا على الشرف والصيت والذكر .. فان الله
تعالى أبى الا عدلا ، أعاننا الله واياكم على ما خلقنا له ، وبارك
لنا ولكم في بقية العمر فما شاء الله ..

وأما ما ذكرت من أمر القصر (١) ، فلا تشقوا على أنفسكم ..
ان جاءكم أمر في عافية فله الحمد ، وان كانت بلية فلا تعدلوا
بالسلامة .. فانه من ترك من أمر ما لا ينبغي أحق بالجزع منكم .

انا قد أيقنا أن الناس لا يذهبون بحقوق الناس ، والله معط
كل ذي حق حقه ، وسعى الناس لهم وعليهم ، والجزاء غدا ..

فان استطعتم أن لا تلقوا الله بمظالم ! .. فاما ما أظلمتم
فلا تخافوا الغلبة فان الله تعالى لا يعجزه شيء .. فمن علم أن
الأمر هكذا فليكبر على نفسه ، وليقبض ما عليها ، فان هذا
أشدّه وأضره .. حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما من بقي من بقية
الجيران فأقرهم السلام ، فقد طال العهد ..

(١) نصر كان له بعث اليه يستشير فيه

وقال شريك : سألت ابراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية فبكى .. فندمت على سؤالى إياه .. فرفع رأسه فقال :
« ان من عرف نفسه اشتغل بنفسه ، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره » ..

وكان يقول :

« اياكم والكبر .. اياكم والاعجاب بالأعمال .. انظروا الى من دونكم ، ولا تنظروا الى من فوقكم .. من ذل نفسه رفعه مولاه ، ومن خضع له أعزه ، ومن اتقاه وقاه ، ومن أطاعه أنجاه ، ومن أقبل اليه أرضاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن سأله أعطاه ، ومن أقرضه قضاه ، ومن شكره جازاه ، فينبغى للعبد أن يزن نفسه قبل أن يحاسب ، ويتزين ويتهيأ للعرض على الله العلى الأكبر ..

ومن أقواله :

« اشغلوا قلوبكم بالخوف من الله ، وأبدانكم بالدأب في طاعة الله ، ووجوهكم بالحياء من الله ، وألسنتكم بذكر الله ، وغضوا أبصاركم عن محارم الله ، فان الله تعالى أوحى الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

يا محمد ! .. كل ساعة تذكرنى فيها ، فهى لك مذخورة ، والساعة التى لا تذكرنى فيها فليس لك .. هى عليك لا لك » ..

وعن الحجاج بن مسهر ، قال : قال ابراهيم بن أدهم :

« محال أن تواليه ولا يواليك » ..

وقال ابراهيم بن بشار ، سمعت ابراهيم يقول :

«بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان : عظمي وأوجز .. فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! .. ان أقواما غرهم ستر الله ، وفتنهم حسن الثناء ، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك ، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين ، وبثناء الناس مسرورين ، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين ، وإلى الأهواء مائلين .. قال : فبكى ، ثم قال :

« أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى » ..

وقال ابن أدهم :

« اذا بات الملوك على اختيارهم ، فبت على اختيار الله لك ، وارض به » ..

وكان يقول :

« ان للموت كأسا لا يقوى على تجرعه الا خائف وجل طائع كان يتوقعه .. فمن كان مطيعا فله الحياة والكرامة والنجاة من عذاب القبر ، ومن كان عاصيا نزل بين الحسرة والندامة يوم الصاخة والطامة ..

وكان يقول :

نرفع دينانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

ويقول :

« اياكم والغرة بالله ، لا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » ..

وسئل عما كان بين علي ومعاوية رضى الله عنهما ، فبكى كثيرا ، ثم رفع رأسه الى السماء فقال :
« من عرف نفسه اشتغل عن غيره » ..

وقال ابن بشار ، سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« ما بالنا نشكو فقرنا الى مثلنا ، ولا نطلب كشفه من ربنا .. هل يتأتى أن يحب عبد عبدا لدنياه ، وينسى ما في خزائن مولاه » ..

قال : ونظر ابراهيم الى رجل قد أصيب بمال ومتاع ووقع الحريق في دكانه ، فاشتد جزعه حتى خولط في عقله .. فقال :

يا عبد الله ! .. ان المال مال الله ، متعك به اذ شاء ، وأخذك منك اذ ما شاء فاصبر لأمره ولا تجزع ، فان من تمام شكر الله على العافية ، الصبر له على البلية ، ومن قدم وجد ، ومن تأخر فقد وندم ..

ثم قال :

هكذا كثيرا : دارنا أمانا ، وحياتنا بعد موتنا ، اما الى جنة
واما الى نار وقال ابراهيم بن ادهم :

« بلغنى أن الحسن البصرى رأى النبى صلى الله عليه وسلم
فى منامه فقال : يا رسول الله عظمى ! .. »

فقال :

« من استوى يوماء فهو مغبون ، ومن كان غده شرا من
يومه فهو ملعون ، ومن لم يتعاهد نقصان من نفسه فهو فى
نقصان ، ومن كان فى نقصان فالموت خير له .. »

وقال :

« خالفتم الله فيما أنذر وحذر ، وعصيتموه فيما نهى وأمر ،
وكذبتموه فيما وعد وبشر ، وكفرتموه فيما أنعم وقدر .. وانما
تحصدون ما تزرعون ، وتجنون ما تفرسون ، وتكافئون بما
تفعلون ، وتجزون بما تعملون ، فاعلموا ان كنتم تعقلون ،
وانتبهوا من وسن رقدتكم لعلكم تفلحون .. »

وقال :

« الله الله فى هذه الأرواح والأبدان الضعيفة .. الحذر
الحذر .. الجد الجد .. كونوا على حياء من الله .. فوالله لقد

ستر وأمهل ، وحاد فأحسن .. حتى كأنه قد غفر ، كرما منه
لخلقه ..

وقال :

« قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع .. وكثرة
الحرص والطمع تورث كثرة الفهم والجزع » ..

وقال ابن أدهم :

« على القلب ثلاثة أغذية : الفرح ، والحزن ، والسرور » .
فاذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، والحريص محروم ..
واذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ..
واذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والمعجب يحبط العمل ..
ودليل ذلك كله قوله تعالى :

« لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ..

وقال ابراهيم :

« اتخذ الله صاحبا ، وذر الناس جانبا : قل الله ، ثم ذرهم »

وقال :

« من قال لأخيه أعطني من مالك ، فقال : كم تريد ؟ .. فما
قام بحق الاخوة — ومن دعاه الى حاجة فقال : الى أين ؟ ..
فما قام بحق الصحبة » ..

وقال :

« طلب الملوك شيئا ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه » ..

وقال :

« ذهب السخاء والكرم والجود ، فمن لم يواس الناس
بذلك فليواسهم ببسط الوجه وحسن الخلق » ..

وقال : قال لقمان عليه السلام :

« لا يعرف الحليم الا عند الغضب ، ولا الشجاع الا في
الحرب ، ولا الاخوان الا عند الحاجة » ..

وقال :

« من لؤم الرجل أن يرفع يده من الطعام قبل أصحابه » ..

وقال :

« حب لقاء الناس من حب الدنيا ، وتركهم من ترك الدنيا ،
ومن أحب الشهرة لم يصدق الله في أعماله » ..

وقال :

« ما أغفل أهل الدنيا عنا ، ما في الدنيا أنعم عيشا منا » ..

وقال :

« كثرة النظر الى الباطل ، تذهب بمعرفة الحق من القلب »

وقال :

« كل سلطان لا يكون عادلا ، فهو واللص سواء ، بمنزلة واحدة .. وكل عالم لا يكون ورعا فهو والذئب بمنزلة واحدة . وكل من يخدم سوى الله فهو والكلب سواء » ..

وقال :

« رآني محمد بن عجلان ، فاستقبل القبلة ثم سجد ، فقال : « أتدرى لم سجدت ؟ .. سجدت شكرا لله تعالى حيث رأيتك » ..

وقال :

« اذكر ما أنت صائر اليه حق ذكره ، وتفكر فيما مضى من عمرك هل تشق به ، وترجو النجاة من عذاب ربك ، فانك اذا كنت كذلك شغلت قلبك بالاهتمام بطريق النجاة عن طريق اللاهين الآمنين المطمئنين الذين اتبعوا أنفسهم هواها ، فأوقعتهم على طريق هلكاتهم .. لا جرم سوف يعلمون ، وسوف يتأسفون ، وسوف يندمون » ..

(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ! ..

وقال الوليد بن مسلم : حدثنا بعض اخواننا قال :

« دخلنا على ابراهيم بن أدهم فسلمنا عليه ، فرفع رأسه

الينا فقال : « اللهم لا تمقتنا » .. وأطرق رأسه ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

انه اذا لم يمقتنا أحبنا .. ثم قال : تكلمنا — أو نطقنا — بالعربية ، فما نكاد نلحن .. ولحنا بالعمل فما نكاد نعرب » .. وقال ابراهيم بن بشار : سألت ابراهيم بن أدهم عن العبادة فقال :

« رأس العبادة التفكير ، والصمت الا من ذكر الله .. ولقد بلغنى حرف — يعنى عن لقمان — قال : قيل له : يا لقمان ما بلغ من حكمتك ؟ .. قال :

لا أسأل عما قد كفيت ، ولا أتكلف مالا يعينى .. ثم قال : يا ابن بشار ! .. انما ينبغى للعبد أن يصمت ، أو يتكلم بما ينتفع به . أو ينفع به من موعظة ، أو تنبيه ، أو تخويف ، أو تحذير .. واعلم انه اذا كان الكلام مثل كان أوضح للمنطق ، وأبين فى القياس ، وأنقى للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث .. يا ابن بشار : مثل لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك فانظر كيف تكون .. ومثل له هول المطلاع ومسألة منكر ونكير ، فانظر كيف تكون ، ومثل له القيامة وأهوالها

وأفزعها .. والعرض والحساب والوقوف ، فانظر كيف تكون ،
ثم صرخ صرخة فوق مغشيا عليه ..

وقال ابراهيم بن بشار :

« كتب عمر بن المنهال القرشي الى ابراهيم بن أدهم وهو
بالرملة .. أن عظمى عظة أحفظها عنك .. فكتب اليه :

« أما بعد ، فإن الحزن على الدنيا طويل ، والموت من
الانسان قريب ، وللنفس منه في كل وقت نصيب ، وللبلى في
جسمه ديب ، فبادر بالعمل قبل أن تنادى بالرحيل ، واجتهد في
العمل في دار المر قبل أن ترحل الى دار المقر » ..

وقال أبو جعفر محمد بن عبد الرحمن السروجي
— بسروج — :

« كتب ابراهيم بن أدهم الى بعض اخوانه ..

أما بعد ، فعليك بتقوى الله الذي لا تحل معصيته ، ولا
يرجى غيره .. واتق الله فإنه من اتقى الله عز وجل عز وقوى
وشبع وروى ، ورفع عقله عن الدنيا .. فبدنه منظور بين ظهرائي
أهل الدنيا ، وقلبه معاين للآخرة .. فأطفاً بصر قلبه ما أبصرت
عيناه من حب الدنيا ، فقذر حرامها ، وجانب شهواتها ، وأضر
بالحلال الصافي منها ، الا مالا بدله .. من كسرة يشد بها صلبه ،
أو ثوب يوارى عورته ، من أغلظ ما يقدر عليه وأخشنه ، ليس

له ثقة ولا رجاء الا الله .. قد رفعت ثقته ورجاؤه من كل شيء مخلوق ، ووقعت ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء .. فجحد وهزل ، وأنهك بدنه لله ، حتى غارت العينان ، وبدت الأضلاع .. وأبدله الله تعالى بذلك زيادة في عقله ، وقوة في قلبه .. وما آخر له في الآخرة أكثر .. فافرض يا أخى الدنيا ، فان حب الدنيا يصم ويعمي ، ويذل الرقاب ، ولا تقل غدا وبعد غد ، فانما هلك من هلك باقامتهم على الأمانى ، حتى جاءهم الحق بفتة وهم غافلون .. فنقلوا على اصرارهم الى القبور المظلمة الضيقة .. وأسلمهم الأهلون والولد .. فانقطع الى الله بقلب منيب وعزم ليس فيه شك ، والسلام ..

وعن خالد بن الحارث قال :

« بلغنى أن ابراهيم بن أدهم قال :

لم يصدق الله من أحب الشهرة » ..

وقال :

« لا يقل مع الحق فريد ، ولا يقوى مع الباطل عديد » ..

وحدث ابراهيم بن بشار قال : سمعت ابراهيم بن أدهم

يقول :

« من الله عليكم بالاسلام ، فأخرجكم من الشقاء الى

السعادة ، ومن الشدة الى الرخاء ، ومن الظلمات الى الضياء ..

فشبتهم نعمته عليكم بالكفران ، ومررتهم بالخطأ حلاوة الايمان ،
ووهنتهم بالذنوب عرى الايمان ، وهدمتهم الطاعة بالعصيان ،
وانما تمرّون بمراصد الآفات ، وتمضون على جسور الهلكات ،
وتبنون على قناطر الزلات .. وتحصنون بمحاض الشهوات ..
فيا لله تغترون ، وعليه يجترءون ، ولأنفسكم تخذعون والله
لا تراقبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ..

قال ابن بشار :

وسمعت ابن أدهم يقول :

« أنعم الله عليك فلم تكن في وقت أنعمه شكورا ، لا يغرك
حلمه ، واذكر مصيرك الى القبور ، واعمل ليومك يا أخى قبل
حشجة الصدور » ..

وقال ابراهيم بن أدهم : قال لقمان لابنه :

« يا بنى : ان الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق ، وما هو
بأحمق .. وان الرجل ليسكت حتى يقال له حليم وما هو بحليم » ..

وقال أبى سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« كثرة النظر الى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب » .

ويقول ابراهيم بن بشار سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« والله ما الحياة بثقة فيرجى يومها ، ولا المنية تغدر فيؤمن

غدرها ، ففهم التفريط والتقصير والاتكال والتأخير والابطاء ؟
وأمر الله جد .

وقال ابراهيم بن أدهم للاوزاعي : يا أبا عمرو كثيرا ما يقول
مالك بن دينار :

« ان من عرف الله تعالى في شغل شاغل ، وويل لمن ذهب
عمره باطلا » ..

وروى عبد الرحمن بن الضحاك عن ابراهيم بن أدهم قال :
مكتوب في بعض كتب الله : من أصبح حزينا على الدنيا ،
فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به
أصبح يشكو ربه ، وأيما فقير جلس الى غنى فتضعع له لدنياه
ذهب ثلثا دينه ، ومن قرأ القرآن فاتخذ آيات الله هزوا أدخل
النار .

قال ابراهيم بن أدهم :

لولا ثلاث ما باليت أن أكون يعسوبا ، ظمأ الهواجر ، وطول
ليلة الشتاء ، والتهجد بكتاب الله عز وجل .

وعن طالوت قال : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

ما صدق الله عبد أحب الشهرة .

وقال ابراهيم بن أدهم :

رأيت في النوم كأن قائلًا يقول لى :

« أو يحسن بالحر المريد أن يتذلل للعبيد وهو يجد عند مولاه ما يريد ؟ » .

وعنه رضى الله عنه قال :

« لا تجعل بينك وبين الله منعًا ، وعد نعمة من غيره عليك مفرما .. »

وقال :

أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان .. ومن وفى العمل وفى الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا الى الآخرة بلا قليل ولا كثير ..

وقال ابراهيم بن بشار :

« وقف رجل صوفى على ابراهيم بن أدهم ، فقال :
يا أبا اسحاق ؟ لم حجبت القلوب عن الله ؟ .. »

قال :

لأنها أحبت ما أبغض الله .. أحبت الدنيا ومالت الى دار
الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، فى
نعيم لا يزول ، ولا ينفد ، خالدا مخلدا ، فى ملك سرمد لا تفاد
له ولا انقطاع ..

قال : وسمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« اذا أردت أن تعرف الشيء بفضله ، فاقلبه بضده .. فاذا أنت قد عرفت فضله .. اقلب الأمانة الى الخيانة ، والصدق الى الكذب ، والايمان الى الكفر .. فاذا أنت قد عرفت فضل ما أتيت .. »

وقال ابراهيم بن أدهم :

« المسألة مسألتان : مسألة على ابواب الناس ، ومسألة يقول الرجل ألزم المسجد وأصلي ، وأصوم وأعبد الله ، فمن جاءني بشيء قبلته .. فهذه شر المسألتين ، وهذا قد ألحف في المسألة »
وكان يقول :

« ما صدق الله عبد أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم »

وقال في تفسير قوله تعالى :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض »

من حب العلو أن تستحسن شمع نعلك على شمع نعل أخيك .

وصحب رضى الله عنه رجلا ، فلما أراد أن يفارقه قال له
الرجل :

« ان كنت رأيت فى عييا فنبهنى عليه » ..

فقال له ابراهيم :

لم أرفيك يا أخى عيبا ، لأنى لاحظتك بعين الوداد
فاستحسنت كل ما رأيته منك ، فاسأل غيرى .

وكان رضى الله عنه ، يقول :

« اطلبوا العلم للعمل ، فان أكثر الناس قد غلطوا حتى صار
علمهم كالجبال ، وعملهم كالذر » ..

وقال بقرية ، سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد على من نزاع النفس
الى الوطن » ..

وقال مضاء : قال ابراهيم بن أدهم :

« ما قاسيت فيما تركت شيئا أشد على من مفارقة
الأوطان » ..

ومن كلماته :

« منذ عشرين سنة أطلب أخا اذا غضب على لم يقل الا
الحق ، فلم أجده » ..

ومن فوائده :

« ان الرجل الحر الكريم ، من تخرج نفسه عن الدنيا ، قبل
أن يخرج منها » ..

وقال :

« لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم ، والسرور ، ولذة
العيش ، وقلة التعب ، لجالدونا عليه بالسيوف .. طلبوا الراحة
والنعيم ، فأخطأوا الصراط المستقيم » .

ولما قدم سفيان الثوري رضى الله عنه الرملة ، أرسل اليه
ابن ادهم - رحمه الله - أن تعال فحدثنا ، فجاءهم ، فقبل له :
تبعث اليه بمثل هذا هكذا .. قال : أردت أن أنظر كيف
تواضعه » ..

وروى ابراهيم بسنده ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم علما مما يتغنى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه
الا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عرف (١) الجنة يوم
القيامة - يعنى ريحها » ..

(١) أى ريح

وروى - بسنده - عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يعذب الموحدين ، بقدر نقصان ايمانهم ، ثم يردهم الى الجنة ، خلودا دائما » ..

وعن ابراهيم بن بشار قال : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« الهوى يردى ، وخوف الله يشفى .. واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواءك ، اذا خفت من تعلم أنه يراك » ..

وعن بقية قال :

« كان ابراهيم بن أدهم اذا قيل له : كيف أنت ؟ .. قال :

بخير ، ما لم يحمل مئوتتى غيرى » ..

ومن أقواله :

« أثقل الأعمال فى الميزان ، أثقلها على الأبدان .. ومن وفى بالعمل ، وفى له بالأجر ، ومن لا عمل له ، لا أجر له » ..

وعن ابن بشار قال :

« أمسينا مع ابراهيم بن أدهم ذات ليلة ، وليس معنا شيء نفطر عليه ، ولا بنا حيلة ، فرآنى مغتما حزينا ، فقال :

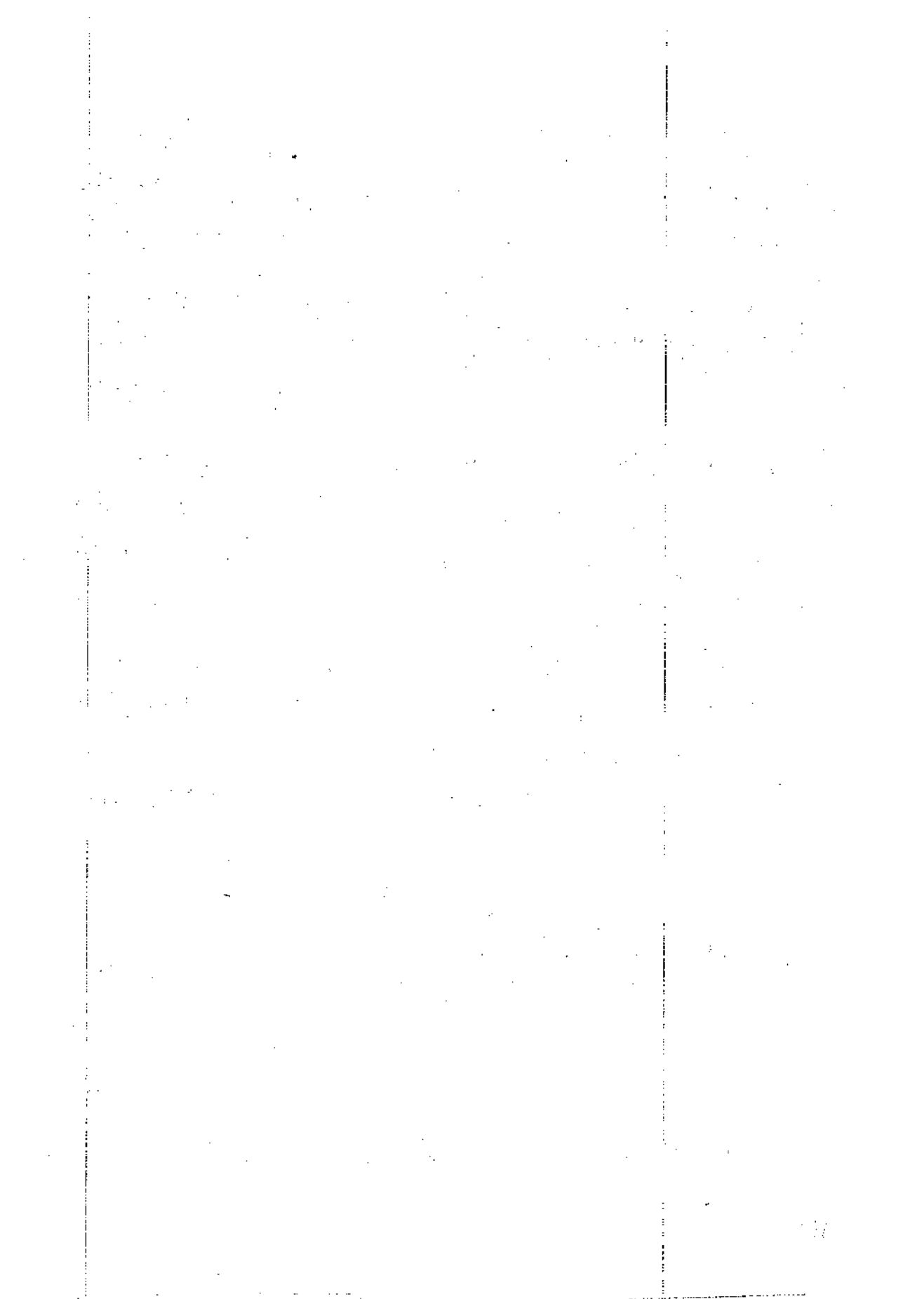
« يا ابراهيم بن بشار ! .. ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ؟ .. لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة - وانما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين .. أغنياء في الدنيا ، فقراء في الآخرة .. أعزة في الدنيا ، أذلة يوم القيامة ..

لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء .. لا نبالي على أى حال أصبحنا وأمسينا اذا أطعنا الله عز وجل - ثم قام الى صلاته ، وقمت الى صلاتي .. فما لبثنا الا ساعة ، اذا نحن برجل قد جاء بشمانية أرغفة ، وتمر كثير .. فوضعه بين أيدينا ، وقال : كلوا رحمكم الله ، قال : فسلم وقال : كل يا مغموم .. فدخل سائل فقال : أطعموني شيئا .. فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر ، فدفعه اليه ، وأعطاني ثلاثة ، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين »

وقال ابراهيم بن أدهم :

« كان عطاء السليمى اذا استيقظ من الليل ، مس جلده مخافة أن يكون قد حدث في جسده شيء بذنوبه .. ومرض مرضا خيف عليه الموت منه ، ف قيل له : أما تشتهى شيئا فجيئك به ؟

فقال : ما أبقي الله عز وجل في جوفى موضعا للشهوات » ..



الفصل الرابع

الطريق

وأول الطريق في عرف ابراهيم بن أدهم ، وفي عرف الصوفية على وجه العموم ، انما هو التوبة .. يقول ابن أدهم :
« انك اذا أدمت النظر في مرآة التوبة ، بان لك شين قبح المعصية » ..

والواقع أن التوبة الصادقة النصوح : هي الابتداء الطبيعي في الطريق الى الله — ومن أجل ذلك حث الله ورسوله عليها في شتى الأساليب ..

أنظر الى هذا الأسلوب الرؤوف الرحيم ، حينما يقول الله تعالى في حديث قدسي :

« يا عبادي ؟.. انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم » (١)
ولقد فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها أمام العاصين ، فقال سبحانه :

(١) رواء مسلم

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١)

وقال :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم) (٢)

ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن فقال :

« لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة » (٣)

وقال :

« لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانقلت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته .. فبينما هو كذلك .. اذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح :

(١) النساء : ٤٨

(٢) الزمر : ٥٣

(٣) متفق عليه

اللهم أنت عبدى وأنا ربك ... أخطأ من شدة الفرح « (١)
وان الملائكة لتدعو للتائبين ، فى أسلوب كله جمال ورقة
ورأفة :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم
ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء
رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب
الجحيم .. ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح
من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم
السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو
الفوز العظيم » (٢) ..

والله سبحانه وتعالى يصلى على عباده ، ليخرجهم من
ظلمات المعصية الى نور الطاعة :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات
الى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما .. تحيتهم يوم يلقونه سلام
وأعد لهم أجرا كريما » (٣) ..

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب الى الله
ويستغفره فى اليوم مائة مرة :

(١) رواه مسلم

(٢) غزائم : ٧ - ٩

(٣) الاحزاب : ٤٣ ، ٤٤

عن ابي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (١) ..

وعن الأغر بن يسار المزنى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس ! .. توبوا الى الله واستغفروه ، فانى أتوب فى اليوم مائة مرة » (٢) ..

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب عن ذنب ، كلا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم وهو السراج المنير .. وهو النور والرحمة ، وهو المعصوم ، أن يأتى الذنب ..

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب عن غفلة .. كلا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن تتنابه الغفلة ، وهو مع الله فى صلاته ونسكه ، ومحياه ومماته ، كما تعبر الآية الكريمة :

(قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين — لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) ..

(١) البخارى

(٢) مسلم

لم كان يتوب صلى الله عليه وسلم ؟..

انه يتوب لأمرين :

أولا : لأن التوبة أمر بها الله تعالى - فهو ينفذ الأمر الإلهي ، وهو بذلك يطيع الله .. فتوبته عبادة - انه يتوب توبة عبادة .. والتوبة من أسمى القربات ، ومن أجل العبادات .. وذلك أنها تعبر عن الذلة لله ، والانكسار له ، والخضوع ، والتواضع .. وكل ذلك انما هو الباب الذى يلج فيه الانسان الى ساحة الله الرحيمة ..

ان الانسان لا يلج ساحة مرضاة الله بكبر .. كلا ، والمتكبر لا مكان له فى الجنة ، ولا فى مرضاة الله ..

ان الله يقول لابليس :

(فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) (١) ..

لا مكان فى الجنة لتكبر ، والمتكبر مطرود من رحمة الله ..

والتوبة هى المظهر لعدم التكبر ، انها معارضة لموقف المطرودين من الجنة ..

(١) الاعراف : ٢٣

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب الى الله توبة عبودية وانكسار ..

أما الأمر الثانى الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر التوبة من أجله ، فهو الدخول فى حب الله سبحانه له .. ان الله أعلن أنه يحب التوابين :

(ان الله يحب التوابين) ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يدخل الى حب الله له من كل باب يوصل الى ذلك .. فهو يدخل من باب الاحسان ، لأن الله تعالى يقول :

(ان الله يحب المحسنين) ..

ويدخل من باب التقوى ، لأن الله تعالى يقول :

(ان الله يحب المتقين) ..

ويدخل من باب الصبر لأن الله يقول :

(والله يحب الصابرين) ..

وكذلك يدخل من باب التوبة ، لأن الله يقول :

(ان الله يحب التوابين)

ويدخل من كل باب يؤدى الى حب الله ومرضاته ..

وأول الطريق - اذن - كما يرسمه ابن ادهم ، هو التوبة ..

وإذا صدقت التوبة استتبت العمل ، وكان لها مظاهر ،
وهذه المظاهر لصدق التوبة كثيرة ، منها مثلا :

ما رواه عبد الله بن داود قال : قال ابراهيم بن أدهم :

(خرجت أريد بيت المقدس ، فلقيت سبعة نفر ، فسلمت
عليهم وقلت : أفيدوني شيئا لعل الله ينفعني به .. فقالوا لى :

انظر كل قاطع يقطعك عن الله من أمر الدنيا والآخرة فاقطعه ،
فقلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : انظر ألا ترجو أحدا غير
الله ، ولا تخاف غيره .. فقلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا :
أنظر كل من يحبه فأحبه ، وكل من يبغضه فابغضه ..

قلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : عليك بالدعاء
والتضرع والبكاء فى الخلوات والتواضع والخضوع له حيث
كنت ، والرحمة للمسلمين والنصح لهم ..

فقلت لهم : زيدونى رحمكم الله .. فقالوا :

« اللهم خل بيننا وبين هذا الذى شغلنا عنك .. ما كفاه
هذا كله ..

فلا أدري السماء رفعتهم ، أم الأرض ابتلعتهم ، فلم أرهم
ونفعنى الله بهم » ..

ومنها ما قاله ابن أدهم لرجل فى الطواف :

اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :
أولها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة - « والنعمة
هنا الترف والكسل والتراخي ، والشدة : أن يحمل نفسه على
أداء التكليف » ..

والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .. « والعز
هنا يدخل فيه الكبر والخيلاء والزهو ، أما الذل فانه التواضع
والانكسار » ..

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد ..

والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر ..

والخامسة : تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر « يقول
تعالى : ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .. والمعنى : أن
تغلق باب الغنى عن الله ، وتفتح باب الفقر والافتقار اليه ..
والسادسة : تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد
للموت » ..

ومنها ما قاله ابراهيم بن أدهم ، عن وصية الله لآدم :

« أول ما كلم الله تعالى آدم عليه السلام قال :

أوصيك بأربع ، ان لقيتنى بهن أدخلتك الجنة ، ومن لقيتنى
بهن من ولدك أدخلته الجنة ، واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة
بينى وبينك ، وواحدة بينى وبينك وبين الناس ..

فأما التى لى : فتعبدنى ولا تشرك بى شيئا ..

وأما التى لك : فما عملت من عمل وفيتك اياه ..

وأما التى بينى وبينك : فمك الدعاء ومنى الاجابة ..

وأما التى بينى وبينك وبين الناس : فما كرهت لنفسك فلا

تأته الى غيرك ..

وتتوالى نصائح ابراهيم بن أدهم فى مظاهر صدق التوبة،

فيقول :

« لاتطمع فى الأنس بالله ، مع الأنس بالخلق، ولا فى الحكمة

مع ترك التقوى » ..

ويقول :

« علامة نور القلب : أن يكون أكثر هم صاحبه العبادة ،

وأكثر كلامه الثناء على الله ، وحكايات الصالحين » ..

وقال :

« انما يزول عن قلبك هواك ، اذا خفت من تعلم أنه

يراك » ..

وقال :

« انما حجت القلوب عن الله ، لكونها أحبت ما أبغضه ،

فمالت للدنيا ، وترك العمل لدار فيها حياة الأبد » ..

إذا صدقت التوبة استتبت العمل كما قلنا ، أما غاية العمل :
فإن ابن أدهم ينبه عليها في هذا المعنى السامى فيما يقوله لأبى
زيد الجذامى :

يا أبا زيد ! .. ما ترى غاية العابدين من الله تعالى غدا في
أنفسهم ؟ ..

قال أبو زيد : الذى أظن سكنى الجنة .. قال : لقد ظننت
ظنا ، ووالله انى لأدرى أن أكبر الأمر عندهم أن لا يعرض بوجهه
الكريم عنهم » ..

وتنتهى التوبة الصادقة لا محالة الى التقوى :

يروى ابراهيم بن بشار عن ابراهيم بن أدهم قال : قال
الله عز وجل :

(ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم
الفائزون) .. فأعلمك أن بتقواه يستوجب جميل الثواب ،
وينجو المتقون من سكرات يوم الحساب ، ويؤولون الى خير
باب .. ثم قال : صدق الله :

(ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ..

الورع :

وإذا صدقت التوبة أثمرت الورع .. يقول شيخنا :

(تب الى الله ينبت الورع فى قلبك) ..

ويساعد على وراثة الورع أمور : يقول ابن أدهم :

(قلة الحرص والطمع .. تورث الصدق والورع .. وكثرة
الحرص والطمع ، تورث الهم والجزع) ..

أما تمام الورع ، فإن ابن أدهم قد سئل عنه فيما يحكى
ابراهيم بن بشار ، قال : سئل ابراهيم بن أدهم : بم يتم الورع؟
قال :

بتسوية كل الخلق من قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك،
وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل .. فكر في ذنبك،
وتب الى ربك ، يثبت الورع في قلبك ، وأحسم الطمع الا من
ربك) ..

ومما لاشك فيه أن منزلة الورع في الاسلام كبيرة .. انه
تحرى الحلال .. وهو أن لا يأتي الانسان شيئاً أو يدعه الا وهو
على يقين من أن ذلك هو مرضاة الله سبحانه .. والآثار في ذلك
كثيرة :

منها ما رواه البخارى وغيره - بسنده - عن النعمان بن
بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها
كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه،
ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراعى يرعى حول

الحمى يوشك أن يواقعه .. ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان
حمى الله في أرضه محارمه .. ألا وان في الجسد مضغة اذا
صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله .. ألا
وهى القلب » ..

وعن ابن عباس قال :

تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) .. فقام
سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ! .. ادع الله أن يجعلني
مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب
الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، ان الرجل ليقذف اللقمة
الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه
من السحت والربا فالنار أولى به ..

الزهد :

واذا صدق الورع أسلم الى الزهد ..

ويروى ابراهيم بن أدهم في ذلك بعض الأحاديث الشريفة ..
فيروى عن أرطاة - يعنى ابن المنذر - قال : جاء رجل الى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! .. علمني عملا
يحبنى الله تعالى عليه ، ويحبني الناس .. قال : أما ما يحبك الله

تعالى عليه ، فالزهد في الدنيا .. وأما ما يحبك الناس عليه
فما كان في يدك فانبذه اليهم » ..

ويروى ابراهيم بن أدهم — بسنده — عن يونس ، أن رجلا
أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « دلني على عمل اذا أنا
عملته أحبنى الله عز وجل ، وأحبنى الناس عليه ..

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

« ازهد في الدنيا يحبك الله وأما الناس فانبذ اليهم هذا
يجبوك »

ويصنف ابن أدهم الزهد فيقول :

« الزهد ثلاثة أصناف : فزهد فرض ، وزهد فضل ،
وزهد سلامة :

فالفرض : الزهد في الحرام ، والفضل : الزهد في الحلال ،
والسلامة الزهد في الشبهات .

وقد تتساءل عن غاية الزاهدين ، فيجيبك شيخنا :

« انما زهد الزاهدون في الدنيا ، اتقاء أن يشركوا الحمقى
والجهال في جهلهم ..

ومن مظاهر الزهد عند ابن أدهم ، أنه قيل له :

ان اللحم قد غلا ، فقال : أرخصوه .. أى لا تشتروه .
وقد كتبنا عن معنى الزهد عند الصوفية ، فى مقدمة الكتاب ،
ورأينا أن المعنى الذى يفهمه الناس عن الزهد عند الصوفية
غير دقيق ..

المحبة :

من طريف ما يروى عن المحبة بالنسبة لشيخنا ، ما رواه
فارس النجار قال :

« بلغنى أن ابراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل عليه
السلام قد نزل الى الأرض ، فقال له : لم نزلت الى الأرض ؟..
قال : لأكتب المحبين .. قال : مثل من ؟ .. قال : مثل مالك بن
دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختياني ، وعد جماعات قال :
أنا منهم ؟ .. قال : لا .. فقلت : فاذا اكتبتهم فكتب تحتهم محب
للمحبين .. قال : فنزل الوحي : اكتبه أولهم » ..

وينسب ابراهيم بن أدهم قوله تعالى :

« فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق
بالخيرات » ..

قال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف
الشوق ، مضطجع على باب الكرامة .. والمقتصد مضروب بسوط
الندامة .. مقتول بسيف الحسرة ، مضطجع على باب العفو ..

والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة ، مقتول بسيف الأمل ،
مضطجع على باب العقوبة ..

ويتحدث إبراهيم بن أدهم الى الناس ، في قوة ميئنا لهم ما
يصرفهم عن أن يصلوا الى درجة المحبة ، وهو حديث يبين في
الوقت نفسه الطريق اليها ، فيقول :

« ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك ، ذم
مولانا الدنيا فمدحناه وأبغضها فأحبيناها ، وزهدنا فيها فأثرناها
ورغبنا في طلبها ، وعدكم خراب الدنيا فحصنتموها ، ونهيتهم عن
طلبها فطلبتموها ، واندرتهم الكنوز فكنزتموها .. دعتكم الى
هذه الغرارة دواعيها ، فأجبتهم مسرعين منادياها ، خدعتكم
بغرورها ومنتكم فانقدتم خاضعين لأمنيئتها ، تتمرغون في
زهواتها، وتتمتعون في لذاتها، وتتقلبون في شهواتها، وتتلوثون
بتبعاتها .. تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها ، وتحفرون
بمعاول الطمع في معادنها، وتبنون بالغفلة في أماكنها، وتحصنون
بالجهل في مساكنها .. تريدون أن تجاوروا الله في داره ،
وتحطوا رحالكم بقربه ، بين أوليائه وأصفيائه ، وأهل ولايته،
وأنتم غرقى في بحار الدنيا حيارى ترتعون في زهواتها ، وتتمتعون
في لذاتها ، وتتنافسون في غمراتها ، فمن جميعها ما تشبعون ،
ومن التنافس فيها ما تملون ، كذبتكم والله أنفسكم ، وغرتكم
ومنتكم الأمانى ، وعللتكم بالتوانى ، حتى لا تعطوا اليقين

من قلوبكم ، والصدق من نياتكم ، وتتنصلون اليه من مساوى
ذنوبكم ، وتعصوه فى بقية أعماركم ، أما سمعتم الله تعالى
يقول فى محكم كتابه :

« أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى
الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .

لا تنال جنته الا بطاعته ، ولا تنال ولايته الا بمحبته ، ولا
تنال مرضاته الا بترك معصيته ، فان الله تعالى قد أعد المغفرة
للأوابين ، وأعد الرحمة للتوابين ، وأعد الجنة للخائفين ، وأعد
الحور للمطيعين ، وأعد رؤيته للمشتاقين ، قال الله تعالى :

« وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ..
من طريق العمى الى طريق الهدى ..

والمحب منصرف الى العبادة :

قال ابراهيم بن أدهم ذات يوم :

« لو أن العباد علموا حب الله عز وجل ، لقل مطعمهم
ومشربهم ، وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحيوا الله
فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى ان منهم قائما وراكعا وساجدا ،
منذ خلق الله الدنيا ما التفت الى من عن يمينه وشماله ، اشتغالا
بالله تعالى وبخدمته » ..

أما مواريث المحبة فيوضحها شيخنا قائلا :

« كنت مارا فى بعض المدن ، فرأيت نفسين من الزهاد والسياحين فى الأرض ، فقال أحدهما للآخر :

« يا أخى !.. ما ورث أهل المحبة من محبوبهم ؟.. فأجابه الآخر ، ورثوا النظر بنور الله تعالى ، والتعطف على أهل معاصى الله ، قال : فقلت له : كيف يعطف على قوم قد خالفوا محبوبهم ، فنظر الى ثم قال :

مقت أعمالهم ، وعطف عليهم ليردهم بالمواعظ عن أفعالهم ، وأشفق على أبدانهم من النار .. لا يكون المؤمن مؤمنا حقا حتى يرضى للناس ما يرضى لنفسه ، ثم غابوا فلم أرهم » .. والمحبون زوار الرحمن ، ويصف ابراهيم بن أدهم فى أسلوب جميل ، النعيم الذى ينتظرهم فيقول :

« بؤسا لأهل النار ، لو نظروا الى زوار الرحمن قد حملوا على النجائب يزفون الى الله زفا ، وحشروا وفدا ، ونصبت لهم المنابر ، ووضعت لهم الكراسى ، وأقبل عليهم الجليل جل جلاله بوجهه ليسرهم ، وهو يقول :

« الى عبادى ، الى عبادى ، الى أوليائى المطيعين ، الى أحبائى المشتاقين ، الى أصفياى المحزونين .. ها أنذا .. عرفونى من كان منكم مشتاقا أو محبا أو متملقا (١) فليتمتع بالنظر الى وجهى الكريم ، فوعزتى وجلالى لأفرحكم بجوارى ، ولأسرنكم

(١) متملقا الى الله أى يفعل ما يحب الله سبحانه

بقربى ، ولا يحنكم كرامتى ، من الغرفات تشرفون ، وتكثون
على الأسرة فتتملكون .. تقيمون فى دار الكرامة أبدا لا تظعنون
تأمنون فلا تحزنون ، تصحون فلا تسقمون ، تنعمون فى رغد
العيش لا تموتون ، وتعانقون الحور الحسان فلا تملون ولا
تسأمون ، كلوا واشربوا هنيئا ، وتنعموا كثيرا بما أنحلتم
الأبدان ، وأنهكتكم الأجساد ، ولزمتهم الصيام ، وسهرتم بالليل
والناس نيام ..

وإذا نظرنا الآن الى الصفات التى تؤهل المؤمن لحب الله
سبحانه ، فإن منها : الصبر ، والله تعالى يقول :

« والله يحب الصابرين »

ومنها التقوى ، يقول تعالى :

« ان الله يحب المتقين »

ومنها الاحسان ، يقول تعالى :

« ان الله يحب المحسنين »

ومنها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن اتباعه ،
يقول تعالى :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم
ذنوبكم) ...

خاتمة

ان شخصية كشخصية ابراهيم بن أدهم لا يتأتى أن تكون
الا شخصية سعيدة من جانبيين :

١ - من جانب المجتمع الذى يعيش فيه فقد سالمه ابراهيم
ابن أدهم فى الجانب الذى يثير الأحقاد والخصومات : وهو
جانب الدنيا ، فسالمه المجتمع ، وعاش ابراهيم بن أدهم لا ينعصه
منغص من زاوية المادة .

وسار ابراهيم بن أدهم فى الدعوة الى الله معتمدا على القدوة
الحسنة أكثر من اعتماده على الزجر والتأنيب ، وكيل المواعظ
المعنفة ، فاقتدى به الكثيرون واتخذوه مثلا كريما يحتذونه .

وسار ابراهيم بن أدهم فى هدايته للناس على طريق الرفق ،
فكانت هدايته تتسم بالرفق والركة ، وأخذ الأمور على ما أحب
الله للواعظ بقوله لموسى وهارون عليهما السلام حينما خافا من
فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى :

« فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى (١) » .

(١) طه آية : ٤٤

ولم يكن ابراهيم بن ادهم يسير في هدايته للناس على جهل ،
كلا ، وانما تعلم وتثقف ودرس سيرة رسول الله صلى الله عليه
وسلم دراسة مستفيضة وسار على نهجه وفي سنته ممثلا قوله
تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو
الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (١) » .

فلما رأى نفسه على بصيرة من أمر الدين والدعوة أخذ في
الدعوة الى الله بسلوكه ويقول له الرفيق ، وكان من هؤلاء الذين
يتابعون الرسل في الدعوة الى الله والذين يدخلون في نطاق من
يقول الله تعالى عنهم :

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا
الا الله وكفى بالله حسيبا (٢) » .

وهو لم يبدأ بذلك حتى كان داخلا في أتباع رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذين يقول القرآن عن رسول الله وعنهم :

« قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني
وسبحان الله وما أنا من المشركين (٣) » .

(١) الاحزاب آية : ٢١

(٢) الاحزاب آية : ٢٩

(٣) يوسف آية : ١٠٨

وكان ابراهيم بن أدهم يخالط الناس وينبسط اليهم من أجل تحبيبهم في الهداية ، ومن أجل أن يسير بهم الى أبواب المغفرة .

يقول الفريابي :

سمعت رجلا قال للأوزاعي : أيهما أحب اليك ؟ ابراهيم بن أدهم أو سليمان الخواص ؟ قال :

« ابراهيم بن أدهم أحب الى ، لأن ابراهيم يخاطب الناس وينبسط اليهم » .

وقدره المجتمع من أجل ذلك أيضا ، فكانت صلته بالمجتمع صلة صاحب الخير الذي يبشر به أينما حل ، يبشر به بسلوكة ويعلمه .

أما الجانب الآخر الذي جعل منه سعيدا في حياته فهو جانب صلته بالله :

لقد دخل ابراهيم بن أدهم المعركة مع الشيطان ومع نفسه وهواه مصمما على الانتصار بتوفيق الله ، ولجأ الى الله في استماتة ، وفي ذلة وعبودية وانكسار ، وسهر الليالي متعبدا ضارعا ، وصام الأيام والشهور راجيا ، وأحب العباداة وأنس بربه ، واستقامت له العبودية ، فأعلن عن ثمرة كل ذلك قائلا في شكر الله وحمد له :

« نحن في نعيم لو علمه الملوك لجالدونا عليه بسيوفهم »

ولم يكن هذا النعيم قصورا ، أو جوارى ، أو ثراء ، أو
جاها دنيويا ، أو رئاسة ، كلا ، وانما السكينة تنزلت عليه ،
وهو :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه »

وهو : « يحبهم ويحبونه »

وهو : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (١) »
وهو : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم
الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون
نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى
أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم (٢) » .

وهو : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى
الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (٣) » .
ولقد قدره معاصروه ، وقدره المؤرخون .

(١) النحل آية : ٩٦

(٢) فصلت آية : ٣٢

(٣) يونس آية : ٦٢ ، ٦٣

يقول صاحب الحلية :

« ومنهم الحازم الأحزم ، والعازم الألزم ، أبو اسحاق
ابراهيم بن أدهم ، أيد بالمعارف فوجد وأمد بالملاطف فعبد ، كان
عن المقطوع والمرذول متباعدا ، وبالمرفوع والموصول متشاغلا
كان شرع الرسول نهجه ، واختياره عليه السلام مرجعه .
ألف الميمون الموصول ، وخالف المفتون المخذول »
ويتابعه صاحب الكواكب الدرية فيقول :

« الحازم الأحزم ، العارف الأعزم ، كان عن المقطوع المرذول
ذاهلا ، وبالمرفوع الموصول متشاغلا ، وكان شرع الرسول
منهاجه ، واختياره عليه الصلاة والسلام مزاجه ، ألف الميمون
الموصول ، وخالف المفتون المخذول » اهـ
ومات بالجزيرة سنة اثنين وستين ومائة ، وحمل فدفن بصور ،
وقبره بها مشهور .

وقال ابن عساكر :

غزا في البحر فمات فيه فدفن في بعض جزائر البحر في بلاد
الروم ، رضى الله تعالى عنه ورحمه رحمة واسعة .
الحمد لله أولا وآخرا

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمي وعلى
آله وصحبه أجمعين .

فهرس

رقم الصفحة

الموضوع

٥	مقدمة
	الفصل الأول :
٣٣	حياته
	الفصل الثاني :
٧٩	المحدث
	الفصل الثالث :
٩٩	الأخلاقى
	الفصل الرابع :
١٢٩	الطريق
١٤٩	خاتمة